

يَوْمُ عاشُوراءَ

دروس وعبر

(أكثر من مائةِ دَرْسٍ وَعِبْرَةٍ)

تأليف

أسامة بن محمد بدوي البرَّاجة

(الطَّبعة الثانية)
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

رقم الإيداع: ٥٦٢٨ /٢٠١٧
الترقيم الدولي: ١ - ٠٤٧ - ٧٤٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨

مكتبة البلد الأمين:
تليفون: ٠١١١١٧١٨٧٢٧

•• مراكز التوزيع:

مكتبة الاستقامة: ٠١١٢٤٥٤٧٠٦٤

دار سطور: ٠١٠٠١٣٣٢٣٧٢ - ٠١١٠٠٦٣٥٠٠٦

مقدمة المؤلف
مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذي علَّمَ بالقلم، علَّمَ الإنسان ما لم يعلم، وأشهد أنْ لا إِلَّا الله، علَّم القرآن، خَلَق الإِنسان، علَّمه البيان، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله النَّبيّ الأُميّ الذي علَّم العالم، فأَعْجزهم بيانُه، وأَبْهَرَهم مَنطقُه وحكمتُه وبلاغتُه ﷺ.

أمَّا بعد...

فهذا هو الجزء الأول من سلسلة (**نحن أولى بمُوسَى منكم**)، وعنوانه:

(يـوم عاشـوراء)

• وتُعتَبر قصة مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ [(١)] في مجملها أطول قصة في كتاب الله **عَزَّوَجَلَّ**.

• وأُرسل مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ بني إسرائيل فرأىٰ منهم العَجَبَ العُجَاب، والمكر والحيلة والخداع، فصاروا - بعد أن أكرمهم الله **عَزَّوَجَلَّ** وفضَّلهم علىٰ العالمين في زمانهم - من المغضوب عليهم والملعونين، وضُرِبَت عليهم الذِّلة والمسكنة، وجعل مِنهم القِردة والخنازير.

• صاروا محور الشرِّ في العالم، وأصل بلائه وكرباته، اتَّهموا الله **عَزَّوَجَلَّ** بالفقرِ؛ وقالوا: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ**﴾ [آل عمران:١٨١]، واتَّهموا مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأشنع

---

(١) أطول قصة مجتمعة في القرآن الكريم هي قصة يوسف الصِّدِّيق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **أما قصة موسى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **فقد وردت في مواضع متفرقة من سور القرآن الكريم.**

التُّهم وأبشعها، واتهموا عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالزِّنا، وحاولوا صَلْبه وقتله، وزرعوا النفاق ورَعَوُا المنافقين في أمة محمد ﷺ، وادَّعَوا أنَّهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم نسله السامي؛ مع أنهم قَتَلَةُ الأنبياء، وَعَبَدَةُ العجل، وقالوا: عُزير ابن الله، وسخِطوا علىٰ المنِّ والسَّلوىٰ، وقالوا لنبيِّهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

• ويدور الزمان دورته ويقترب من خط النهاية، فإذا بالكون يستجير منهم؛ حتىٰ ينادي الشجر والحجر: **{ يَا عَبْدَ اللهِّ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي، فَاقْتُلْهُ }**!(١).

وفي هذا الكُتيِّب نتدارس واقعة من وقائع بني إسرائيل يوم أن نجَّاهم الله تعالىٰ من اليم، وأغرق فرعون وجنده، وجعل لهم البحر طريقًا يبسًا «مِنَّة منه وتكرُّمًا».

وكان ذلك في يوم عاشوراء؛ اليوم العَاشر مِنْ شهر الله المحرَّم، وكانت العرب تصومه علىٰ ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفُرِض صيامه في السنة الثانية من الهجرة، ولما فُرِضَ رمضان في نفس العام صار صيامه نفلًا (تطوعًا)، كما وَجَدَ الرسول ﷺ اليهود في المدينة يصومون ذلك اليوم، فلما سألهم قالوا: «هَذَا اليَوْمُ الَّذِي أَظْفَرَ اللهُّ فِيهِ مُوسَىٰ، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، وَنَحْنُ نَصُومُهُ تَعْظِيمًا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ: **{ نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ }**، ثُمَّ أَمَرَ بِصَوْمِهِ »(٢)، ورغَّب في صيام يوم قبله

---

(١) أخرجه البخاري، ك: الجهاد والسير، ب: قتال اليهود، ح (٢٩٢٥)، ولفظه: {تُقَاتِلُونَ اليَهُودَ، حَتَّى يَخْتَبِيَ أَحَدُهُمْ وَرَاءَ الحَجَرِ، فَيَقُولُ: يَا عَبْدَ اللهِّ، هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي، فَاقْتُلْهُ}.

(٢) أخرجه البخاري، ك: مناقب الأنصار، ب: إتيان اليهود النبي ﷺ حين قَدِم المدينة، ح (٣٩٤٣)، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أو بعده، إقرارًا لمبدأ المخالفة لهم، والتميز لهذه الأمة الخاتمة.

أكثر من مائة درسٍ وعِبرة، استخلصتُها من هذا الحادث الجَلَلِ.

أسأل الله تعالىٰ بفضله أن ينفع بها هذه الأمَّة، وأن تكون ذُخرًا لنا في الآخرةِ.

وانطلاقًا من قوله تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم]، نأخذ التَّذكرة مِنْ أيام الله ونَفَحاته فيها؛ وكما قيل: «**إن لربكم في أيام دهْركم لنفحاتٍ.. ألا فتعرضوا لها**».

هذا وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أُنيب، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أسامة بن محمد بدوي البَرَّاجة

في غُرَّة شهر الله المحرَّم لعام ١٤٣٦هـ



مقدمة الطبعة الثانية

• قصة مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وردت متفرِّقة غير مجتمعة كقصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومع هذا لم يُفْرَدْ لمُوسَىٰ سورة تسمَّىٰ به - مع كثرة ذكره في القرآن الكريم - حتىٰ قال بعضهم: كاد القرآن أن يكون كلُّه مُوسَىٰ.

وكان أَوْلىٰ سورة تسمَّىٰ به هي: سورة (طه أو القصص أو الأعراف) لبسط قصته في الثلاثة ما لم يُبسط في غيرها.

وبعض القُرَّاء كـ(السخاوي) يسمِّي سورة طه بـ«سورة الكليم»، وسمَّاها (الهُذَلِيُّ) في كامله بـ«سورة مُوسَىٰ». وذلك يحتاج إلىٰ مستند من الأثر.

• واحتوىٰ القرآن الكريم علىٰ كثير من قصصه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ منها: قصة البقرة، وسُمِّيت السورة باسمها، وقصة أصحاب السبت، وقصته مع السامري، وقصته مع الخضر عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وقصته مع شُعيب وبناته، وقصة مؤمن آل فرعون، والذي سُمِّيت سورة غافر باسمه (سورة مؤمن)، وقصته مع السَّحرة، وقصته في قصر فرعون، وإسلام زوجه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وقصته مع الحجر، وسرّ الحجر في حياة بني إسرائيل، وقصة قارون وبلعام، وغيرهما.

ولقد أفردنا بعضها في كتب من هذه السِّلسلة، والتي عنوانها: «**نحن أولى بموسى منكم**».

• ومن مقاصد إيراد القصص في القرآن الكريم: أخذ العبرة والعظة، والتنبيه علىٰ سبب إهلاك الأمم والشعوب، وأن العقوبات قد حلَّت بهم بسبب إعراضهم

ومعاصيهم، ومخالفتهم للرسل والأنبياء، وما هي من الظالمين ببعيد.

* ومن مقاصده أيضًا: تثبيت القلب على الحق؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان:٣٢].

فقصص القرآن تأكيدٌ لسُنن الله تعالى في الخلق، ومن هذه السُّنن: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة]، ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطلاق]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[غافر:٥١]،﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف]؛ وأن العبرة بالخواتيم.

• وليت الأمر يقف عند موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فنحن أولى بعيسى منهم أيضًا، وبنوح وبإبراهيم؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾[آل عمران:٩٥]. ويأتي نوح يوم القيامة، فلا يشهد له قومه بتبليغ الرسالة، فتشهد له أمة محمد ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].. وقال عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف:٦].

واسمع لقول النجاشي لَّما قرأ عليه الصحابة صدر سورة مريم؛ قال: « إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ »(١).

• أسأل الله العلي القدير، البرَّ الرحيم أن يرزقنا الأسوة والقدوة بهم، فالرسل هم الكواكب النيرات في سماء حياة البشرية، وهم الواسطة بين الخلق والحق

(١) أخرجه أحمد، ح (١٧٤٠) من حديث جعفر بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ في الهجرة إلى الحبشة.

جَلَّوَعَلَا في تبليغ مراد الله تعالىٰ من خلقه، وتعريفهم بما ينفعهم ويصلُح لهم من خيري الدنيا والآخرة.

اللهم إنا نسألك حُسن العاقبة والخاتمة، وأن تحشرنا في زمرة الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين في الفردوس الأعلىٰ.

وصلِّ اللهم وبارك علىٰ خاتمهم وسيِّد ولد آدم محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِۦوَسَلَّمَ.

كتبه

أسامة بن محمد بدوي البَرَّاجة

في غُرَّة شهر صفر لعام ١٤٣٧هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾ [الشعراء].

صدق الله العظيم.

الدروس والعبر المستفادة من يوم عاشوراء

(١) نحن أولى بموسى منكم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ وَقَالَ: { **أَمُتَهَوِّكُونَ (أي متحيرون) فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي** }(١).

• **نحن أولى بموسى منكم:** جعلنا الله تعالى أمة وسطًا لنكون شهداء على الناس يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ١٤٣** ﴾ [البقرة].

نحن نشهد أن نوحًا قد أدَّى الرسالة وبلَّغها، وأن مُوسَى كذلك، ولذا فنحن أولى بهؤلاء الرسل من أتباعهم الذين يتنكَّرون لهم يوم الدِّين.

• **نحن أولى بموسى منكم:** اقرأ قصة مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الأعراف حتى تصل إلى قول الله تعالى: ﴿ **وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ** ... ١٥٦ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٥٩** ﴾ [الأعراف]؛ وتدبَّر كيف جمَعَ الله تعالى الرَّحْمَةَ لأمة محمد ﷺ، ولمن تَبِع الرسل من قبله ﷺ؛ بشرط الإيمان به، وهذا هو الميثاق في قوله تعالى:

---

(١) أخرجه أحمد، ح (١٥١٥٦)، وحسَّنه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم (١٧٧).

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

• **نحن أولى بموسى منكم:** فضَّل الله تعالى الرُّسُل، واختصَّ منهم أُولي العزم الخمسة: (نُوحًا، وإبراهيم، ومُوسَىٰ، وعيسىٰ، ومحمدًا عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ)، واجتمعوا جميعًا علىٰ رسالة واحدة: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾.

عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: { **مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ: لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ**} قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: { **فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ، جِئْتُ فَخَتَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ** }(١).

وحدة الرسالة الإلهيَّة، وحقيقة التوحيد فيها، ودعوتهم جميعًا لعبادة الله وحده.

• لذلك كان الإسلام دين الأنبياء جميعًا؛ كلُّ نبيٍّ ساهم في بناءِ هذا الإسلام حتىٰ أُتِمَّ بناؤه ببعثة خاتم النبيِّين محمد ﷺ؛ لذلك قال فرعون عند غَرَقه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس].

• فجميع الرسل علىٰ دين واحد؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى

(١) أخرجه مسلم؛ ك: الفضائل، ب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، ح (٢٢٨٧).

ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

ولقد بيَّن القرآن الكريم على لسان رسله هذه الحقيقة، وبيَّنها رسول الله ﷺ بقوله: { ... **وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ** }(١).

قيادة العقل واحدة، إسلام لله عَزَّوَجَلَّ لكي يفكر في الغاية من خلقه ووجوده؛ من تحمُّل الأمانة والقيام بأعباءِ الخلافة، وتحقيق العبودية لله عَزَّوَجَلَّ وحدَه لا شريك له. والإسلام هو الاستسلام لله وحده، والرضا بشرعِه، وتطبيق أوامره، والبعد عن زواجرِه ونواهيه.

• **ونحن نتميَّز بين الأديان والمِلَل والنِّحل المنتشرة بما يلي:**

١- لا نفرِّق بين أحد من رُسُل الله عَزَّوَجَلَّ، ومؤمنون بهم جميعًا.

٢- نُصلِّي ونسلِّم عليهم جميعًا، ونؤمن بالكتب التي أُنزِلَت عليهم قبل دخول التحريف والكتمان والتبديل عليها.

٣- لا نقول فيهم إِلَّا خيرًا؛ فلا نتهمهم بالزِّنا أو شُرب الخمر أو مصارعة الرَّب؛ كما يفعل غيرنا في كتبهم الموجودة بين أيديهم اليوم، بل نقول: إنهم معصومون من سوء الأخلاق، متَّصفون بالأخلاق الحميدة والخلال المجيدة، معصومون في الرسالة والتبليغ.

٤- لا نصفهم إلا بما وصفهم الله تعالى به؛ فإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ «**خليل الرحمن**»، ومُوسَىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ «**كليم الله**»، وعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ «**رسول الله وكلمته ألقاها إلى**

---

(١) أخرجه البخاري؛ ك: الأنبياء، ب: قول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾﴾، ح (٣٤٤٩).

مريم وروحٌ منه»، ومحمد ﷺ «مسك الختام».

• **نحن أولى بمُوسَى منكم:** فما جاء من التوراة التي جاء بها مُوسَىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هي دينٌ وشرعٌ لنا، فـ **(شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأت في ديننا ما ينسخه)**(١). ونحن نتلو القرآن الكريم ونتعبَّد الله تعالىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ** ﴾ [المائدة: ٤٤].

وأما نهيُ النبيِّ ﷺ لعمرَ الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ فكان في بداية الرسالة، حتىٰ لا يختلط القرآن بغيره، ومن أجل ذلك نهاهم عن كتابة الحديث النبوي أولًا، وعندما كَمُل الدين، واستقرَّ التشريع ونزل قوله تعالىٰ: ﴿ **ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا** ﴾ [المائدة:٣]، أَذِنَ النبيُّ ﷺ في السَّماع من بني إسرائيل ، مع عدم تصديقهم أو تكذيبهم، ولما دخل كعب الأحبار حبر اليهود في الإسلام، كان يحدثهم بما جاء في التوراة متوافقًا مع القرآن الكريم.

❁❁❁

---

(١) هذا من مصادر التشريع العشرة؛ وهي: (القرآن، والسُّنَّة، والإجماع، والقياس، والمصالح المرسلة، وعمل أهل المدينة، وقول الصحابي، والاستصحاب، وشرع من قبلنا ما لم يأت في شرعنا ما ينسخه، والعُرف).

ولا خلاف بين العلماء على المصدرين الأول والثاني، وهما الكتاب والسُّنَّة بفهم سلف الأمة، وأما الباقي من المصادر العشرة فقد وقع الخلاف فيها بين العلماء، فأقرها بعضهم، وأنكرها آخرون.

(٢) بين الهداية والصبر:

قال تعالىٰ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

• **نحن أولى بمُوسَى منكم:** يُرشِدك هذا النَّبي العظيم ﷺ إلىٰ شيءٍ عظيم؛ وهو: احترام الأنبياء، والصَّلاة والسلام عليهم، وتنزيههم عن كل مكروه وعيب ونقص، واتِّباع هديهم الصحيح.

• ونحن ندفع عن مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأذىٰ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب].

• وندفع عن عيسىٰ ابن مريم الألوهية، ونُصلِّي ونُسلِّم عليه وعليها، وهو عندنا مِنْ أُولي العزم مِنَ الرُّسُلِ، وندفع تُهمة الزَّنا عن أُمِّه كما اتَّهمها بها غيرنا، وأمُّه عندنا صِدِّيقة. **إذن فنحن أولى بمُوسَى منهم!**.

• اتِّباعُنا للأنبياء لا يكون بالشَّعوذة، أو اتخاذ التماثيل، أو الصور، أو الصُّلبان، أو الطُّقوس التي لا معنىٰ لها ولا مغزىٰ منها؛ إنما يكون بعبادةِ الله بما جاءونا به مما يُقرِّبنا إلىٰ الله تعالىٰ. ولا يكون اتباعنا لهم بالمبالغة والغُلُوِّ فيهم، واللجوء إليهم بالسؤال، وطلب الحوائج منهم.

• ومما يجعلنا **أولى بمُوسَى** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **منهم**، أنَّ أتباع مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، – وحتىٰ أتباع عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي جاء مصدِّقًا للتوراة – قد غيَّروا وبدَّلوا وحرَّفوا وأنكروا كثيرًا مما جاء به مُوسَىٰ وعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونحن الأمَّة الوحيدة التي لم تُبدِّل؛ لذلك وافق شرعُنا الحقَّ والصواب في شرع من قبلنا، مع تميُّزنا به، ليكون صالحًا للناس كافَّة، حيث أُرسل كل نبي ورسول إلىٰ قومه خاصَّة إلا واحدًا أُرسل كافة للناس؛

وهو خاتم النبيين محمد ﷺ؛ لذلك أمر الله تعالى نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباعهم في الهدى بقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وفي الصبر بقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥].

۞۞۞

(٣) ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس]:

• من لم يعتبر بتاريخ من سبق فقد غبَّر نفسه وظلمها، فالتاريخ عِبَر وعظات، وتنبيه للغفلات، وناصحًا من الزلات مما وقع فيها من سبق؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم:٩].

ومن فضل الله تعالى على هذه الأمة الخاتمة أن الله تعالى صقلها بالخبرة والعلم بتجارب كل الأمم السابقة، وهذا لم يحدث لأمة غيرها على وجه الأرض.

قال الله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾ [إبراهيم].

• ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾: فهذه آية لنا تحتاج إلى دراسة وفهم ومعرفة العبر والدروس حتى ننتفع بهذه الآية، وهل نحن منهم؟

• كان فرعون - وما زال - آية وعلامة نَعْرِفُ بها كل طاغية ومستبدٍّ في حكمه للناس وسياستهم، وهو آية لكل جندي يُعطِّل عقله ويُساق كما يُساق من لا عقل له، فقد غرق هو وجنوده، فما ذنب هؤلاء الجنود كي يُغرقهم الله تعالى معه؟

• وآية لكل مؤمن موحِّد ليعلم عاقبة الظالمين، وأن العاقبة الحسنة للمتقين؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ [الدخان].

وشتَّان بين نجاه بدنه، ونجاة بني إسرائيل؛ لذلك دائمًا ما ذكَّرهم الله تعالى بهذه النعمة؛ قال تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم:٦].

❁❁❁

(٤) لماذا لم يستحق قوم مُوسَى أن يكونوا خاتمي الأمم؟

• لماذا لم يَستحق قوم مُوسَىٰ أو قوم عيسىٰ أن تكون أمَّة منهم خاتمة الأمم؟!

ولماذا خصَّ الله تعالىٰ أمَّة محمد ﷺ بذلك الشَّرف؟

وهل الصَّفوة المؤمنة التي نجَّاها الله تعالىٰ مع مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وضربَ لهم طريقًا في البحر يبسًا، وأدْرَك فِرعون وجنده الغرق - هي التي شاهدت الذين يعبدون الأصنام فقالوا لنبيِّهم مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨]؟

وهل هم الذين عبدوا العِجل وأضلَّهم السَّامري، وهل كانَ ذلك قبل عبورهم

اليَمّ أم بعده؟!

• المتابع لقصة موسى عليه السلام يجد أنَّ ذلك كان بعد نجاتهم...

قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٤٠)﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي (٨٦) قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا (٨٩) وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي (٩٠) قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي (٩٣) قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي (٩٦) قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي

ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف].

• فإذا كان هذا حال الصفوة المؤمنة الذين شاهدوا معجزة البحر، ونجَّاهم الله عَزَّوَجَلَّ، وعاينوا غرقَ فرعونَ وجندهِ، وعاينوا آيات عديدة من الله عَزَّوَجَلَّ: من أخذه آل فرعون بالسنين، ونقصٍ مِن الثَّمرات، وإرسال الطُّوفان والجَراد والقُمَّل والضَّفادع والدَّم آيات مفصّلات، وشاهدوا معجزات مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومع كل ذلك فعلوا ما فعلوا!، فقد فتنهم السامريُّ وعَبَدوا العِجل!، وقالوا لموسىٰ لن نؤمن لك حتىٰ نرىٰ الله جهرة، وهم الذين استبدلوا الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، وهم الذين ماطلوا في تنفيذ أمر الله كما في قصة البقرة، وهم الذين قالوا

لنبيِّهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة]؛ لذلك لم تستحق هذه الأمَّة أنْ تنال هذا الشَّرف، وتكون خاتمة الأمم.

• والذين سألوا الله أن يُنزِّل عليهم مائدةً مِنَ السماء هُمُ «الحواريون»، وهم الصَّفوة المؤمنة مِنَ التلاميذ أتباع عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ قالَ الله تعالىٰ: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة].

• تأمَّل وتدبَّر قولهم: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾. ما زالوا في شكٍّ وريبٍ في صدق نبيِّ الله عيسي عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ويحتاجون لمزيدٍ مِن المعجزات الحِسية بعد معجزات إحياء الموتىٰ بإذن الله، وشفاء الأبكم والأبرص بإذن الله؛ لذلك لم يستحقوا أن ينالوا هذا الشَّرف ويكونوا آخر الأمم.

• ويونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ترك قومه ويئس منهم؛ فالتقمه الحوت، ثم نبذه بالعراء وهو سقيم.

• ونوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ دعا علىٰ قومه فأغرقهم الله عَزَّوَجَلَّ بماءٍ منهمر، وفجَّر الأرض عيونًا فالتقىٰ الماء علىٰ أمرٍ قد قدر، ونجَّىٰ نوحًا والفئة القليلة المؤمنة معه.

• أما محمد ﷺ فقد دعا الله تعالىٰ أن يُخرِج مِن أصلابِ الكفَّار مَنْ ينصرُ دينَه، ويشهد أنَّ لا إله إلا الله، فكان خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ؛ أبوه الوليد أشدُّ أعداء

النَّبي ﷺ، وكانَ عِكْرمة بن أبي جهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أبوه أبو جهل العدوُّ اللدود للإسلام، وكانَ عبدُ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ابنِ رأسِ النفاق عبدِ الله بنِ أُبي ابن سلول.

وكانَ أصحاب النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ نماذج عجيبة في الثِّقة والتَّصديق والنصرة لنبي آخر الزمان محمَّد بن عبد الله ﷺ.

فالصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُخبره مشركو مكة بحادث الإسراء والمِعْراج فيقول لهم: « أَوَ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ» (١).

• وهؤلاء أصحاب بَيعة الرِّضوان؛ يُعاهِدون رسول الله ﷺ على السَّمع والطَّاعة في العُسر واليُسر، والمَنشط والمَكره، وعلى مواجهةِ الأبيض والأحمر.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**بَايَعْنَا رَسُولَ الله ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ**» (٢).

وهؤلاء الأنصار يطلب النَّبيُّ ﷺ الكلمة منهم في مَشورتِه لهم للخروج في غزوةِ بدر؛ فماذا قالَوا؟

قَالَ الْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ يَوْمَ بَدْرٍ: « يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لاَ نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، ك: معرفة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ب: أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٤٤٠٧).

(٢) أخرجه مسلم؛ ك: الإمارة، ب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ح (٣٤٢٦).

إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: { فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ }، وَلَكِنِ امْضِ وَنَحْنُ مَعَكَ، «فَكَأَنَّهُ سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ»(١).

• لذلك استحق هؤلاء الفوز بالنَّبي الخاتم، وأن يكونوا خاتم الأمم، وكتابهم آخر الكتب، هم ومن كان على شاكلتهم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة].

فإن كان هذا أعظم تشريف لهذه الأمَّة الخاتمة، إلا أنَّه مع ذلك تكليف ومسئولية وحمل عبء أمانة الرسالة، وتبليغها للناس كافة إلى يوم الدِّين.

❁❁❁

(٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام]:

لا يترك المولى عَزَّوَجَلَّ خلقه دون بيان وتوضيح لمسلك الصالحين على صراطه المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء]، وهو طريق الضالين على سبيل الغواية والضلال؛ ولم يكن الأمر قاصرًا على الرجال فقط بل حتى النساء؛ قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى

---

(١) أخرجه البخاري، ك: التفسير، ب: فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ح (٤٣٣٣). عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم].

فنجاة مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ(١) توضيح للسبيلين: سبيل المؤمنين مع مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وسبيل المجرمين المفسدين مع فرعون وحاشيته وجنده ومؤيديه من أمثال هامان وقارون.

• وسبيل المؤمنين وضَّحه الله عَزَّوَجَلَّ: استعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، وصبر في الله، ومع الله، ولله عَزَّوَجَلَّ، وثبات على الحق، ورؤية واضحة للطريق والمستقبل، وثقة في الله سبحانه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء].

• وسبيل المجرمين المفسدين كفرعون ومن عاونه ووالاه: طغيان وفساد وكبر وغطرسة، واعتماد على الماديات، وسخرية من المؤمنين ، ومعاداة أهل الحق، وتشويه صورتهم، ومحاولة إبادتهم، وتبديل الحقائق، وجهلهم بعجزهم وضعفهم وسوء مصيرهم.

• وهذا من عدل الله تعالى ورحمته أن يوضِّح ويبيِّن طريق الهدى من طرق الضلال، والغي من الرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبيَّن الحق الذي ينبغي سلوكه؛ قال تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه. فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتَّضحت أمكن اجتنابها، والبعد عنها، بخلاف

(١) تفسير: تيسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان، للشيخ السعدي، ص (٢٢٠١).

ما لو كانت مشتبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

اللهم أرِنا الحق حقًّا وارزقنا اتِّباعه، وأَرِنَا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضلَّ، واجعلنا للمتقين إمامًا.

❁❁❁

(٦) الوحي:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء]، الإنسان في هذه الدنيا إما أن يخضع ويستسلم ويتبع الوحي، أو يخالف فيخضع ويستسلم ويتبع الهوىٰ، ولا ثالث لهما. فهما طريقان للعبد: إمَّا اتباع الوحي أو اتباع الهوىٰ.

◘ والوحي يأتي في القرآن والسُّنة على خمسة أوجه:

١- الوحي عن طريق رسول الوحي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ:

ويسمَّىٰ النَّاموس الذي يأتي لجميع الرُّسُل والأنبياء بالرسالة والكتب: (كالزبور، وصحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، والقرآن). وهذا النوع خاص بالمرسلين دون غيرهم، وقد يأتي علىٰ صورته الحقيقة (يسدُّ الأفق بستمائة جناح)، وقد يأتي في صورة رجل؛ كما في حديث جبريل المشهور الذي قال النبي ﷺ في آخره: «**إنه جبريل أتاكم يُعلِّمكم أمور دينكم**»، وقد سأل النبيَّ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها، وهذا الوحي بالرسالة لا يكون إلا للرسل والأنبياء، وهم من الرجال.

٢- الوحي عن طريق الرؤيا:

ورؤيا الأنبياء والمرسلين حق، ومنها قول الله تعالىٰ علىٰ لسان رسوله إبراهيم

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنه إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. والرؤيا الصالحة للمؤمن جزء من النبوّة تتحقق له كفلق الصبح، فهذا الوحي حجَّة للرسول والنَّبي، ولغير الرُّسل ليس بحُجَّة، ولا يتعدىٰ صاحبه.

٣- الوحي عن طريق الإلهام:

كما قال الله تعالىٰ لأم مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص]، وكما قال الله تعالىٰ في النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل:٦٨]، وهذا الوحي عامٌّ وليس خاصًّا بالرُّسل.

٤- الوحي عن طريق الكلام المباشر من الله عَزَّوَجَلَّ أو من الملائكة:

كما قال تعالىٰ في قصة مريم الصِّدِّيقة عليها وعلىٰ ابنها السلام: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦﴾ [مريم]، وهذا لا يعني نبوَّة أو رسالة؛ لأنه بدون كتاب، ولا يخص إلَّا صاحبه فقط.

٥- الوحي عن طريق النفث في النفس:

كقوله ﷺ: { هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ جِبْرِيلُ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَأْخُذُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ }[1].

(١) أخرجه البزَّار في «مسنده» (٧/ ٣١٤)، ح (٢٩١٤)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: =

ومنه ما كان يحدث للنَّبي ﷺ من الجهد والتعب حتىٰ يغيب عنه الوعي ثم يفيق ﷺ يُحدِّث بما ألقاه إليه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في نفسه وهو في هذه الحالة.

والوحي هو الجهة الوحيدة التي تصلنا بالله عَزَّوَجَلَّ، ويأتينا منها خبر السماء.. وهو الجهة التي تُخبرنا عن الغيب الذي يعجز العقل عن إدراكه. فلابُدَّ من التسليم في أمور الغيب للوحي؛ حيث لا مجال للعقل فيها؛ لأن مجال العقل يكون في المحسوسات والمدرَكات.

❁❁❁

(٧) من آثار الوحي:

الرؤيا الصالحة؛ فتصبح كفلق الصبح، وهذا ما بقي من البشارات من آثار النبوة، والإلهام بالتوفيق؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود]، واستشارة أهل الصلاح والتقوىٰ، وصلاة الاستخارة. (**فما خابَ مَنِ استخارَ، وما نَدِمَ مَنِ استشارَ**).

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاِسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَالسُّورَةِ مِنَ القُرْآنِ يَقُولُ: { **إِذَا هَمَّ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي – أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ – فَاقْدُرْهُ لِي، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي – أَوْ قَالَ: فِي**

= حسن صحيح، رقم (١٧٠٢)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ، وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ }(١).

❁❁❁

(٨) ما يُضادُّ الوحي:

تم تعريف الوحي وأنواعه وآثاره، والآن نتعرف على العوائق المضادة للوحي:

أ- الهوى: فالعبد أمام طريقين لا ثالث لهما: إما اتِّباع الوحي ؛ فيسلم ويغنم ويفوز بخيري الدنيا والآخرة.. وإما أن يتبع الهوى؛ فيضل به عن سبيل الله تعالى، ويشقى ويصيبه الفزع والخوف والحزن.

ب- إيحاء شياطين الجن لشياطين الإنس زخرف القول غرورًا؛ قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ** ١١٢﴾ [الأنعام]، وأكثر هذه الإيحاءات هي الشبهات.

ج- الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، يُزين لهم الباطل، ويرغِّبهم في الشهوات المحرَّمة، ويقذف في عقولهم الشبهات المضللة، وهذه الثلاثة مجتمعة في قول فرعون لقومه: ﴿**مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ** ٣٨﴾ [غافر](٢).

فما يراه فرعون هو من تزيين الشيطان له، ووساوسه في قلبه وعقله، واتِّباعه لهواه، وإلا فأي سبيل للرشاد في استخفاف فرعون لعقول قومه، واستعباده لهم،

---

(١) أخرجه البخاري، ك: الدعوات، ب: الدعاء عند الاستخارة، ح (٦٣٨٢).

(٢) انظر إلى خطورة الهوى في الكتاب القيم «مدارج السالكين»، لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولقد اختصرنا طرق دفع الهوى في كتابنا «الربا بين ضروريات العصر ومتطلبات النصر».

وادعائه الربوبية فيسجدوا له؟!

❁❁❁

(٩) إنكم متَّبَعون:

• قال الله تعالى لنبيِّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان]، ومع هذا ﴿فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء]، وهذا يُبين جانب الضَّعف والخلل في ثقة بني إسرائيل في نبيِّهم، كان من الأَوْلى بهم أن يعلموا بداهة أن الله إذا قال لنبيِّه موسى: اخرُج وأَسْر بعبادي؛ فمعناه: أن الله عَزَّوَجَلَّ يريد أن يُخرجهم للنجاة لا للهلاك، وكان عليهم أن يزدادوا ثقة وتصديقًا بكلام ربِّهم لنبيِّه، ويقولوا إذا شاهدوا فرعون وجنوده: صَدَقَ اللهُ، وَصَدَقَ رسولُه.. لكنه الفارق بين بني إسرائيل وأصحاب النَّبي الأمين ﷺ؛ صحابته الكرام الغُرِّ الميامين الذين قالوا لما رأوا الأحزاب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب].

يلوم الناس أهل الحق عندما يتابعون أهل الباطل؛ إما للقضاء عليهم، أو لعودتهم إلى الحق، ولا لوم على أهل الباطل إذا تابعوا أهل الحق في كل مكان وزمان.

• وثمة أمر آخر: وهو أن الصراع بين الحق والباطل ديمومي ما دامت السماوات والأرض، ولن يتوقف بين فريقين إلَّا كانت النتيجة لأحد الأطراف على حساب الآخر، مع أخذ العبرة بسُنَّة الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وتأمَّل كلمة ﴿وَجَعَلَ﴾، واستعمالها مع ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وتأمَّل حذفها

من جملة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾.

وللحق هَيبة مستمدَّة من هَيبة الحق جَلَّوَعَلَا، وأنه يَعلو ولا يُعلَىٰ عليه، وأن القِلَّة الثابتة عليه أقْوَمُ وأعزُّ من الكثرة المائلة عنه، ويكفي أن الله عَزَّوَجَلَّ معها، ويؤيدها وينصرها.

تأمَّل كل هذه المعاني عندما تتعجَّب من إصرار فرعون وجنوده علىٰ متابعة مُوسَىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، ومن معه، علىٰ الرغم من أنهم تركوا له البلاد وهاجروا بعيدًا عنه، لكنه إصرار الباطل علىٰ تماديه وطغيانه وكِبره حتىٰ يلقىٰ حتفه لا محالة.

❁❁❁

(١٠) معية الله تعالى المكانية، ومعيته الشعورية:

قال الله تعالىٰ لكليمه موسىٰ عندما أرسله وأخاه هارون عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ إلىٰ فرعون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه]. فقالها مُوسَىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ عندما انقطعت الأسباب، وظنَّ أصحابه أنَّهم مُدركون. قال: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء]، أي سيهدين لما فيه نجاتي، ونجاتكم.

وهكذا قالها محمد ﷺ ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، قالها لصاحبِهِ في الغار، وهو يقول له: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. وذلك عندما تنقطع الأسباب بالعبد، حيث يتحقق له معنىٰ التوكل علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وحده...

والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد:٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام].

وقال ﷺ: { إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي، فَلاَ يَبْصُقُ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى }(١).

والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾ [الواقعة]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق].

وفي الحديث: {قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا مَعَ عَبْدِي حَيْثُمَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ}(٢).

فهذه معيَّة يجب أنْ تصحبَ العبد في حياتِهِ ويكون على يقينٍ منها، ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠]، أحاطت قدرته وسيطرته وعلمه ورحمته، هذه المعيَّة إذا صاحبت المسلم فإنها تمنعه مِنَ الظُّلم والجور والغِش والخِيانة والكذب والزُّور وأكل أموال الناس بالباطل، والظُّلم في الميراث...، وتضبط تصرفاته وأفعاله، وتجعل الله عَزَّوَجَلَّ رقيبًا عليه على الدوام، تورثه هيبة وخشية ينتفع بها، وتنفعه في العلوم الشَّرعيَّة التي يتعلَّمها.

• **أمَّا المعيَّة المكانية:** فلله عَزَّوَجَلَّ صفة العلو، فهو سبحانه العلي الأعلى، وإليه يصعد الكَلَم الطيّب، والعمل الصالح يرفعه، والروح تصعد إلى السماء إلى بارئها، والمعراج كان إلى السموات العُلَى، والرحمن على العرش استوى، ونقول في السجود: (**سبحان ربي الأعلى**)، ونرفع أيدينا إلى السماء في الدعاء، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك:١٦].

---

(١) أخرجه البخاري، ك: الصلاة، ب: حكُّ البزاق باليد مِنَ المسجد، ح (٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا مع الجزم، ك: التوحيد، ب: قول الله تعالى: (لا تحرك به لسانك لتعجل به) [القيامة:١٦]، ووصله الإمام أحمد في مسنده (مسند أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، ح (١٠٩٦٨).

والنَّبيُّ ﷺ قالَ للجَارية: { أَيْنَ اللهُ؟ } قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: { مَنْ أَنَا؟ } قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: { أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ }(١).

۞۞۞

(١١) ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه]:

• وأنا أتدبر آيات غرق فرعون، وأتعايش معها كأنني وسط هذه الأحداث، وأشعر بخفقان قلبي والرعد في فرائصي، لما تراءى الجمعان؛ القلة المؤمنة والكثرة الفاجرة، وما هي إلا لحظات ويأتي مُوسَىٰ الوحي؛ قال تعالىٰ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء:٦٣]، وكم تدبَّرت في قصص المرسلين والصالحين؛ فوجدت استجابة الله عَزَّوَجَلَّ أسرعَ وأقربَ في نجدة العبد من أي تصور، وكم مرت في حياتنا أزمات كنا نظن أنها مهلكة، ثم يأتي الفرج والتيسير من قِبَل العزيز الرحيم.

۞۞۞

(١٢) ارتياك فرعون:

• قال تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الشعراء]. والسؤال: ما دام هؤلاء «شرذمة»، و«قليلون» فلماذا الغيظ والحذر؟ ما هو سبب غيظكم منهم؟ وما هو سبب الحذر؛ وخاصة أنهم رحلوا عنك؟!.

---

(١) أخرجه مسلم؛ ك: المساجد ومواضع الصلاة)، ب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة)، ح (٥٣٧).

إذا كان هؤلاء – مُوسَىٰ وأتباعه –، باعتراف فرعون نفسه، أنهم قلَّة، وشرذمة غير منظَّمة، وغير مدرَّبة علىٰ فنون القتال والمواجهة، وليس لديها الإمكانيات؛ فلماذا يا فرعون ترسل في المدائن وتطلب المدد والعون، وأنت معك من الجنود المدرَّبة والعتاد أضعاف أضعاف أتباع مُوسَىٰ الذين خرجوا معه؟ لكنها سُنَّة الله تعالىٰ الدائمة عندما يبثُّ الرُّعب في قلوب أعدائه، كما بثّ الله تعالىٰ الرُّعب في قلب الملك وهو يواجه الغلام في قصة أصحاب الأخدود، وكما بثّ الله تعالىٰ الرُّعب في قصة النمرود مع خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكما قال سيد المرسلين محمد ﷺ: **{ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ }**(١).

إن هذا الرُّعب جند من جنود الله تعالىٰ؛ قال تعالىٰ: **﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾** [المدثر:٣١]، يقابل هذا الرُّعبَ السكينةُ والطمأنينةُ التي تتنزَّل علىٰ أهل الحق؛ قال تعالىٰ: **﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾** [الفتح:٤].

* التحالفات والتكتلات لمواجهة الحق:

وحتىٰ هذا الزمان، انظر لا تستطيع أي قوة علىٰ ظهر الأرض مهما عظمت أو تعاظمت أن تواجه دولة مسلمة دون تحالفات وتكتلات مع حلفائها، وما ذلك إلا لهيبة الحق، ونعمة الرعب التي يقذفها الله تعالىٰ في قلوبهم جزاءًا وفاقًا لشركهم بالله عَزَّوَجَلَّ ومعاداتهم للحق.

فما يحدث في الكون من أحداث ومجريات يعلمها الملك العزيز الجبار المتكبر،

---

(١) أخرجه البخاري، ك: التيمم، ح (٣٣٥)، ومسلم؛ ك: المساجد ومواضع الصلاة، ح (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وتجري وفق السنن الإلهية.

❁❁❁

(١٣) سُنَّة الاستبدال والتداول:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد].

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء].

• إنها سُنَّة الاستبدال؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد]، يعني: إن تأخَّرتم وتلكَّأتم عن نُصرة الله ورسوله وبخلتُم بإنفاق المال والنَّفْس في سبيل الله يهلكم الله تعالى، ولا يعتدَّ بكم، ويأت بقومٍ آخرين لا يكونون أمثالكم، ولكن ينصرون الله ورسوله، وينفقون في سبيل ذلك المال والنَّفس، ويبذلون كل غالٍ ونفيس، ويورثهم أرضكم ودياركم؛ قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص].

وقال تعالى لأمَّة الحبيب ﷺ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب]، وذلك بعد غزوة الأحزاب.

فتأمَّل وتدبَّر...

• هذا فرعون وجنوده شَغَلَهُم التّرف عن الإيمان بمُوسَىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأتباعه، وظنُّوا أن ذلك لا يحرمهم من الجنَّات والعيون، والكنوز والمقام الكريم، وهذا قياسهم العقلي الفاسد، تمامًا مثلما قاس إبليس بعقله فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [ص: ٧٦]، فخرج مذمومًا مطرودًا من رحمة الله تعالىٰ، وقاس آدم بعقله فأكل من الشجرة، فخرج هو وحواء من الجنَّة؛ وهذا القياس العقلي أفسد خلقًا كثيرًا.

• وكذلك سُنَّة التداول: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ [آل عمران]. والأيام دُوَلٌ بين الناس.

۞۞۞

(١٤) حكمة المولى عَزَّوَجَلَّ في البلاء:

ابتلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ قوم مُوسَىٰ من بني إسرائيل بفرعون الذي جعلهم شيعًا، يستضعف طائفة منهم؛ يقتل الذكور، ويستحيي النساء، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص] – وفي هذا البلاء عدة فوائد منها:

– **التثبيت والتمحيص (التربية والتعليم).**

– **الصبر (إنما ابتلاني ليرى مدى صبري).**

– مشاهدة الحِكم الإلهية، ومنها: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران].

– **مشاهدة الرحمة الإلهية، فالله تعالى أرحم بعباده من الأم بولدها.**

- الشوق إلى الله والدار الآخرة، وتعلُّم فن الدعاء، والإخلاص فيه.
- مشاهدة الرضا بقضاء الله تعالى في السَّرَّاء والضَّرَّاء بعد مشهد الصبر.
- لمحاسبة النفس وترغيبها في التوبة والإصلاح.
- ليشهد العبد بهذا البلاء عِزَّ الربوبية وهيمنتها، وذُلَّ العبودية وانكسارها.
- لرفعة العبد درجات عند الله عَزَّوَجَلَّ، بعد مغفرة الذنوب وتكفير السيئات.
- لمشاهدة سُنَّة المداولة (وتلك الأيام نداولها بين الناس) .
- لانتظار الفرج والتيسير، فلا يأتي بلاء إلا ويُسْرٌ قبله ويُسْرٌ معه ويُسْرٌ بعده.

۞۞۞

(١٥) لماذا الصوم:

• الصَّوم مِنْ أرقِّ العبادات وأصفاها للنَّفس بعد الصلاة، والصِّيام يعوِّدنا الصبر، ويُذكِّرنا بصبر مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع بني إسرائيل، والصيام شكرٌ لله تعالىٰ علىٰ نعمِه، ومنها نعمة انتصار التوحيد والحقِّ علىٰ الشرك والباطل، والصيام عبادة خالصة لله تعالىٰ ليس للخلق فيها نصيب، لقوله تعالىٰ في الحديث القُدسي: { **كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ** }(١).

والصيام يعوِّدنا ويعلِّمنا الحِلم والأَناة، ويُعلِّم الدُّعاة والعُلماء الصبر في الدَّعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وتحمُّل المَشاقِّ والصِّعاب والأذىٰ في سبيل الله تعالىٰ، ومِنْ أجل هداية الناس وتعليمهم.

---

(١) أخرجه مسلم، ك: الصيام، ب: فضل الصيام، ح (١١٥١).

وطريق الدعوة طويل وشاقٌ، ولكن نهايته عظيمة، وهي أعظم نفعًا للبشريَّة والعبرَة بالخواتيم.

إنَّ الصبر الذي تحلَّىٰ به نبيُّ الله وكليمه (مُوسَىٰ بن عمران) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مع بني إسرائيل جعله مِنْ أُوْلي العَزم من الرُّسل، والصيام تواصل مع الأنبياء جميعًا؛ فقد صام خليل الرحمن (إبراهيم)، وزكريا، ويحيىٰ، وعيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

وفي صيام يوم عاشوراء دليل علىٰ أن شكر المولىٰ عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه لا يكون إلا بالطاعة والعبادة والذِّكر.

• واليهود كانوا يصومون هذا اليوم؛ لأنَّ الله تعالىٰ نجَّىٰ فيه رسولهم، ونحن أمَّة الصَّبر والشُّكر. عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «**كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ يَصُومُهُ، فَلَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ صَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ تَرَكَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ، وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ**»(١).

وفي عبادة صوم يوم عاشوراء دليل علىٰ أن دين الأنبياء والرسل واحد، وأنَّ شريعة الصوم مكتوبة عليهم كما فرضها الله علينا؛ قال تعالىٰ: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣**﴾ [البقرة].

وانظر وتأمّل قُدوة الأنبياء لنا، وأنها لا تكون إلَّا في عبادة صحيحة خالصة لله ربِّ العالمين، نتواصل معهم في التوحيد، وفي العبادات، «**فشَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لنا ما لم يأت في شرعنا ما يَنسخه، وبشرط أن يُقرَّر في ديننا ما يدل على صحَّة هذا الشَّرع**

(١) أخرجه البخاري، ك: الصوم، ب: صيام يوم عاشوراء، ح (٢٠٠٢).

وسلامته مِنَ التحريف والنقصان، وأن نفعله اتِّباعًا لنبيِّنا وليس اتِّباعًا لما هُمْ عليه».

❁ ❁ ❁

(١٦) مَكْرٌ ومَكْرٌ:

قال تعالىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

وقال سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل].

وقال فرعون للسحرة لَمَّا آمنوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]، وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل].

ولقد وردت آيات كثيرة تتحدث عن قضية المكر في القرآن الكريم، مما يدل علىٰ أهميتها، وأهمية دراسة فقهها وأحكامها، ومراد الله تعالىٰ من ذكرها لنا. ..

ولكن الشاهد هنا اتهام فرعون للسحرة بالمكر، وهم براء منه، وهو المكَّار الكذَّاب الأشر، فقوله يدل علىٰ مكره وفكره الخبيث، والسحرة كانوا أعجب إيمانًا، وأنقىٰ صدورًا، وأتقىٰ لله عَزَّوَجَلَّ.

❁ ❁ ❁

(١٧) التشبُّه:

• صام رسول الله ﷺ يوم العاشر، شكرًا لله تعالىٰ علىٰ نجاة أخيه مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمر بصيام يوم قبله إقرارًا لمبدأ التميُّز والمخالفة – وقالَ ﷺ لما سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ؟ فَقَالَ: { **يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ** }(١)، وقال ﷺ { **وأفْضَل الصِّيَام بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ شهرِ الله المحرم** }(٢).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: { **صُومُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَخَالِفُوا فِيهِ الْيَهُودَ، صُومُوا قَبْلَهُ يَوْمًا، أَوْ بَعْدَهُ يَوْمًا** }(٣).

وعَنْه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالَ: حِينَ صَامَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: { **فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ** }. قَالَ: فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، حَتَّىٰ تُوُفِّيَ رَسُولُ الله ﷺ. وفي رواية: { **لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ الْيَوْمَ التَّاسِعَ** }(٤).

• وهذا الدين قائم علىٰ التغيير من أجل التميُّز – هوية واضحة –، وصبغة الله عَزَّوَجَلَّ؛ والتي لا يوجد أحسن منها، وعبادة وعقيدة تدلان علىٰ صراط الله المستقيم الذي لا عِوَج له، ولا اعْوجاج فيه؛ قالَ الله تعالىٰ: ﴿ **صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ** ١٣٨ ﴾ [البقرة]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ**

---

(١) أخرجه مسلم، ك: الصيام، ب: استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، ح (١١٦٢).
(٢) أخرجه مسلم، ك: الصيام، ب: فضل صوم المحرم، ح (١١٦٣).
(٣) أخرجه أحمد، ح (٢١٥٤)، وابن خزيمة في صحيحه، ح (٢٠٩٥).
(٤) أخرجهما مسلم، ك: الصيام، ب: أي يوم يصام في عاشوراء، ح (١١٣٤).

ﭐلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ والهِدَاية إلىٰ صِراط الله عَزَّوَجَلَّ لا تكون إلَّا بمُخالفةِ أصحاب الجَحيم.

ولقد ذمَّ الله تعالىٰ التقليد الأعمىٰ، كما ذمَّ التشبُّهَ بالقوم الضالين والمغضوب عليهم.

قال ﷺ: «**{ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَومٍ فَهُوَ مِنْهُمْ }**(١).

• ومن البَديهي أن الأدنىٰ يُقلِّد الأعلىٰ ويتشبَّه به، وكذلك المغلوب يُقلِّد الغالب - غالبًا -، والله سبحانه جعلنا الأعلىٰ بشرط الإيمان؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران].

فلا ينبغي لأصحاب الحقِّ، ومن هم علىٰ الهدىٰ، المتمسِّكين والمتميِّزين بصراط الله تعالىٰ أن يتشبَّهوا بمن ضلَّ عن صراط الله، أو حرَّف وبدَّل تعاليمه، أو كتمها واستبدلها.

لذلك ربَّىٰ النَّبي الخاتم أمَّته علىٰ العزَّة الإيمانيَّة، والاستعلاء بهذا الدين، والتميُّز به، والظُّهور بأمره؛ كما في الحديث: **{ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ }**(٢).

فما كان مِنْ خير ورشد عند من سبقنا أمرنا به؛ لأنه من الإسلام، ثم أرشدنا إلىٰ التَّميُّز به عنهم؛ لذلك أمرنا بالتَّميُّز بصيام يوم قبله لإقرار مبدأ المخالفة لهم والتَّميُّز عنهم، والمخالفة لها أثر عظيم في إقرار عدم الرِّضا عما هم فيه مِنْ باطل، والبُعد عن سيكولوجيَّة التَّقارب بينهم علىٰ حساب الدين والحق.

---

(١) أخرجه أحمد، ح (٥١١٥)، وأبو داود، ك: اللباس، ب: في لبس الشهرة، ح (٤٠٣١).

(٢) أخرجه مسلم، ك: الإمارة، ب: قوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحق)، ح (١٠٣٧).

فأنت تُحب من تتشبَّه به، وتتمنى أن تكون قريبًا منه أو معه، وترضى عن أفعاله وتصرفاته حتى ولو كانت باطلة أو حرامًا.

لذلك أمر الإسلام بالتشبُّه بالصالحين، وقيَّد التقليد في الأمور الحسنة النافعة، وكان رسول الله ﷺ على رأس قائمة الأُسوة والقُدوة، وهذه أهم أُسس الدين الإسلامي العظيم وقواعده.

لذلك لم يبدأ المسلمون التاريخ الإسلامي مِنْ مولد النَّبيِّ ﷺ مخالفة للنصارى؛ لأنَّ النَّصارى ابتدءوا التاريخ مِنْ مولد عيسى؛ عبد الله ورسوله، والمسلمون أمَّة مستقلة ذات طابع خاص وكيان متميِّز عن غيره، ولأن مولده ﷺ لم يُغيِّر في العرب شيئًا، إنما التغيير حدث بعد الوحي، ثم بدءًا من الهجرة التي صارت إيذانًا بالعزَّة والغَلبة وقيام هذا الدين وهيمنته.

• فصراط الله عَزَّوَجَلَّ المستقيم لا يصحّ السَّير فيه والثَّبات عليه إِلَّا بمُخالفةِ أصحاب الجَحيم، وهم في الأصل مخالفون لنا، يكرهون ما نحن عليه مِنَ الهدى، وقال الله على لسان نبيِّه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما قال لقومه: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود].

ونحن نُعاهد الله تعالى على هذا التَّميز في كل يوم أكثر مِنْ سبع عشرة مرَّة (وهو عدد رَكعات الفَرائض الخمس) في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة].

❁❁❁

(١٨) فَهْمُ النَّفْسِيَّاتِ :

• الأمر من الله تعالىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالسير بمن آمن ليلًا في اتجاه البحر، جاء بعد حادثة السَّحرة، وإيمانهم بالله تعالىٰ، وأن فرعون لما قال لهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء].

قالوا له: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء].

وفي سورة طه: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه].

• ولم يثبت عندنا دليل من الكتاب والسُّنَّة أن فرعون مسَّهم بسوء أو تمكَّن منهم وحقَّق تهديده لهم بالصَّلب والقتل، بل حماهم الله عَزَّوَجَلَّ ونجَّاهم كما حمىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ونجَّاه وهو رضيع في قصر فرعون، وكما حمىٰ مؤمنَ آل فرعون وهو في مجلسه يتوعده ويدعوه ويدافع عن مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعن دعوته كما ورد في سورة المؤمن (غافر).

• ثم قارِن بين إيمان هؤلاء، وإيمان بني إسرائيل الذين شاهدوا هذه الآية العجيبة؛ آية العصا وتحوُّلها إلىٰ حيَّة تسعَىٰ، والآية الأعجب منها إيمان السَّحرة وثباتهم وتحوُّلهم من عُصاة إلىٰ دُعاة في ثوانٍ من ظهور آية العصا لهم، ثم مشاهدة

بني إسرائيل آية البحر بعد ذلك وغرق فرعون وجُنده، وبعد ذلك كله عَبَدوا العِجْل، ووقفوا في وجه نبي الله هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أراد منعهم عن ذلك...

ألا يدعونا ذلك إلىٰ وقفة تأمُّل لهؤلاء، وتعجُّب من طبيعتهم المتقلبة، وكُفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم: (قلوبنا غُلُف)؛ سوف تجد هي هي نفس طبيعة النَّسل الذي يدَّعي لنفسه زورًا أنه شعب الله المختار، والسَّامية التي ينتسبون إليها. وما أجملَ وأروعَ كتابَ الله عَزَّوَجَلَّ وهو يعلِّمنا «فهم النفسيَّات».

۞۞۞

(١٩) يخادعون الله وهو خادعهم:

كثيرًا ما تتشابه أفعال وأقوال ومواطن الكفار مع المنافقين، لذلك قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ [الأعراف:١٣١].

وهذا قد تكرَّر كثيرًا في حديث القرآن عن المنافقين؛ مثل قولهم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥].

قال فرعون لمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأعراف]، يخادِع مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما طلب منه الآية جاءه الجواب القولي والعملي بأكثر من آية، فَلِمَ المراوغة والخداع؟

وظل يخادع ويحاور؛ فادَّعىٰ ظلمًا وزورًا أن هذه الآيات فِعْلُ ساحر، وهو يعلم علم اليقين أن مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس بساحر، فهو القائل لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ

﴿ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ۝٢٧﴾ [الشعراء].

وصدق فيه وفي المنافقين أمثاله قوله تعالىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة]، وقوله تعالىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٢].

❁❁❁

(٢٠) حلم الله تعالى وحكمته في الصبر على الطغاة والمستبدين والمستكبرين والكافرين:

• فرعون قبل غرقه وهلاكه طغىٰ في الأرض، وأهلك الحَرث والنسل، يُذبِّح الأولاد، ويستحيي النِّساء، جعل الناس شيعًا، يستضعف طائفة منهم... كل ذلك كان قبل ميلاد مُوسَىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، واستمر في طُغيانِه واستكباره حتىٰ صار مُوسَىٰ نبيًّا ورسولًا، ثم أخذ جولات وصولات مع مُوسَىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، سنوات عديدة وفرعون مصدر للفساد في الأرض، ومنبع للشر فيها.

ومع ذلك كله حَلُمَ الله عليه، وأملىٰ له وأمهله، وأرسل له صفوة مِنۡ رُسُله (مُوسَىٰ وهارون عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ)، وأمرهما أنۡ يقولا له قولًا ليِّنًا لعلّه يتذكّر أو يخشىٰ، ثم لما أمهله وأنذره، وعتا وتكبَّر، أخذه ولم يُفلته، أخذه أَخۡذَ عزيز مقتدر، وهذه مَشاهَد مُتكرِّرة في كلِّ زمان ومكان، وهذه سُنَّة الله تعالىٰ في الظالمين، فإنَّ الله تعالىٰ يُملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤﴾ [الأنعام].

• والله عَزَّوَجَلَّ حرَّم الظُّلم بكلِّ أنواعه: الظُّلم في حقِّ الله تعالىٰ؛ وهو الشّرك، والظُّلم في حقّ الآخرين؛ وهو انتقاص حقّهم أو الاعتداء عليهم، والظُّلم في حقّ النَّفس؛ بتركها في غيِّها وعدم ترويضها علىٰ الطَّاعة والاستقامة وحُسن الخلق، والله عَزَّوَجَلَّ قد حرَّمه علىٰ نفسه، ففي الحديث القُدسيِّ: **{ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا }**(١).

وقال ﷺ: **{ مَنْ اقْتَطَعَ حَقّ امْرِئ مُسْلِم بِيمِيْنِه فَقَد أَوْجَبَ الله لَهُ النَّار وَحَرَّمَ عَلَيْه الجنَّة}**، فَقَالَوا: وَإِنْ كانَ شيئًا يسيرًا يَا رسُول الله؟ فَقَالَ: **{ وَإِنْ كانَ قضيبًا مِن أَرَاكٍ }**(٢).

• فلا يغترَّ ظالِم أو جاهل بسُنن الله تعالىٰ؛ قالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣** ﴾ [إبراهيم].

وسبحان الملك الذي حلمه وصبره ورحمته يتناسب مع أخذه وعِقابه وعذابه، وهذا من عظيم عدله جَلَّوَعَلَا وجليل صفاته.

وصبر الله تعالى على الطُّغاة والمُستبدِّين له حِكَم كثيرة؛ لعلّ أجلّها وأشهرها حكمتان:

الأولىٰ: إقامة الحُجَّة الرساليَّة عليهم، وتذكيرهم بالحقِّ أكثر مِنْ مَرَّة، وعلىٰ فترات رغبة، ورحمة مِنَ الله تعالىٰ في التَّوبة عليهم وهدايتهم.

---

(١) أخرجه مسلم، ك: البر والصلة والآداب، ب: تحريم الظلم، ح (٢٥٧٧).
(٢) أخرجه مسلم، ك: الإيمان، ب: وعيد من اقتطع حق مسلم، ح (١٣٧).

الثانية: المنُّ على الذين استضعفوا في الأرض لجعلهم أئمَّة، والتَّمكين لهم في الأرض، ليكونوا أداة لنُصرةِ دين الله تعالى والحقِّ في الأرض، وستارًا لقدرتهِ جَلَّ وَعَلَا؛ قالَ تعالى: ﴿**طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦**﴾ [القصص].

فإذا تمَّ لهم التَّمكُّن، لا يفتنهم المركز ولا السُّلطان ولا الملك عن الغاية منه؛ قال تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١**﴾ [الحج].

❁❁❁

(٢١) ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه]:

من أين يَنشأ الخوف والاضطراب في قلب العبد؟ والخوف ظاهرة نفسية شغلت أفكار وأبحاث أطباء كثيرين في مجال الطبِّ النفسي والصحة النفسيَّة.

والخوف إما خوف فطري، وإما خوف عقائدي - كما ذكرنا سابقًا -، لكن الله عَزَّوَجَلَّ يطمئن مُوسَىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه، لكي لا يغلب عليه الخوف الفطري، فلا خوف يطرأ على الإنسان عندما يكون مع الله، أو يكون الله معه.

• يعلم الله **عَزَّوَجَلَّ** خوف مُوسَىٰ الفطري من العَصا لما ألقاها فصارت حية

تسعىٰ، وخوفه من بطش فرعون وقتله وتكذيبه بسبب أنه قتل منهم نفسًا، فأراد أن يطمئنه وهو أمام معجزة تبهر العقول، وتُحيِّرُها، وتُذهل الأذهان عن طبيعتها، فمنظر البحر مخيف ومرعب، ومنظر الطريق الذي أوجده الله تعالىٰ بقدرته وحوله بقوله «كن فيكون» أكثر دهشة ورعبًا، والعقل يقف عاجزًا مستسلمًا أمام قدرة الله تعالىٰ في المعجزات التي أجراها علىٰ أيدي رسله الكرام، فأراد الله تعالىٰ أن يؤمِّنه ويُطمئنه: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه] . «لَا تخافُ دَرَكاً أَيْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَلا تَخْشىٰ يَعْنِي مِنَ الْبَحْرِ أَنْ يُغْرِقَ قَوْمَكَ»(١).

❁❁❁

(٢٢) إيَّاك والعُجْب :

بنو إسرائيل أصابهم هذا الدَّاء العضال، والمرض الفتَّاك «العُجب» و«الغُرور»؛ غرَّهم حِلم الله تعالىٰ، وصبره عليهم وعفوه عن الزلَّات بعد الهفوات، فهل يُعقل أن من شاهد معجزة البحر وغرق فرعون وجُنده، يحيد عن صراط الله؟! أو يخالف تعاليم رُسُل الله الذين ساق الله المعجزة علىٰ أيديهم؟!

الغرور الذي أدَّىٰ بهم إلىٰ لعنة الله تعالىٰ وسخطه عليهم؛ من أجل ذلك لُعِن بني إسرائيل: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة].

والعبد عندما يقع في التقصير في حق الله تعالىٰ، أو في المخالفة لأمره بالمعصية ثم يتبين له عفو الله تعالىٰ عنه ومغفرته وكرمه؛ حينئذ يكون أسيرًا لكرمه، ذليلًا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٢٧٠).

لعفوه، متواضعًا لطاعته، راغبًا فيه، مُقبلًا غير مُدْبِر، أمَّا أن يُصاب بالغرور والكِبر فيتمادىٰ في غيِّهِ وضلاله؛ فهذه هي الطامَّة التي أصابت فرعون وهامان وقارون، وتوارثها بنو إسرائيل علىٰ مدىٰ العصور والدهور.

۞۞۞

(٢٣) نجاة مُوسَى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه نوع من أنواع النصر:

فليس النَّصر مقصورًا علىٰ السلاح والإنسان في المعارك الحربيَّة فقط، ولا شَكَّ أنَّ ذلك أعلىٰ وأغلىٰ أنواع النَّصر علىٰ الإطلاق، ولكن هناك أنواعًا أخرىٰ مِنَ النَّصر مثل:

- **النصر بانتقام الله عَزَّوَجَلَّ من الظالمين**؛ كما حدث في غرق فرعون وجُنده.

- **النصر بالمعاهدات والصلح**؛ كما وقع فيُ صُلح الحُديبية، فقد سمَّاه الله تعالىٰ فتحًا ونصرًا.

- **النَّصر بالدُّعاء**؛ مثل دعاء نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ قومه، ولُوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ قومِه.

- **النَّصر بالموت والشهادة في سبيل الله**؛ كانتصار غلام الأخدود في قصةِ أصحاب الأخْدود، فقد كانَ قتلُه نصرًا.

- **النَّصر بإقامةِ الحُجَّة والبُرهان**؛ كما في حُجَّة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ قومه.

- **النَّصر بإرسال الملائكة**؛ تُثبِّتُ الذين آمنوا، وتَبُثُّ الرُّعب في قلوب الكَافرين.

- **النَّصر بجنودِ الله تعالىٰ**؛ فلا يعلم جنود ربك إلا هو كما في غزوة الأحزاب، وإرسال الريح عاتية شديدة علىٰ الأحزاب فتشتتوا وتفرَّقوا وانهزموا.

- **النَّصر بنصرةِ دين الله تعالىٰ في الأرض**؛ والعمل علىٰ إعزاز أهله، كما قالَ الله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد].

- النصر بالوقت والزمن.

۞۞۞

(٢٤) صبر مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرعون وقومه من ناحية وعلى بني إسرائيل من ناحية أخرى؛ مما جعله من أولي العزم من الرسل:

• وهو صبر **اختياري**، وهو أعظم أنواع الصَّبر وأعلاها وأعظمها أجرًا؛ لأنه صبر على التزام العبد على الدين، وملاقاة الأذى في سبيل الله، والصبر على ذلك باختياره وإرادته، فهو أعظم صور الصبر؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت].

وهذا الصبر كان صبر أولي العزم من الرسل (نوح، وإبراهيم، ومُوسَىٰ، ومحمد – عليهم جميعًا الصلاة والسلام).

لذلك أمرَ الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ أنْ يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف].

• **وصبر اضطراري**؛ لا حيلة للعبد في دفعه عن نفسه، والأجر فيه يكون على قدر الرضا به، وشكر الله تعالى عليه وحمده، والاستمرار على العبادة والدعوة – فأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ صبر على مرضه، ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ صبر على فَقْدِ ولده، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ صبر على أذى إخوته والسجن. وكلها أمور مقدورة لا يرفعها

ولا يدفعها العبد عن نفسه باختياره، فهو مضطر للصبر عليها، والأجر يكون على الرِّضا بها والتسليم لقضاءِ الله وقدره، وعند الصَّدمة الأولى.

ولقد جمع الرسول الرائد محمد ﷺ بين النَّوعين، فنالَ الفضل كلَّه والكرامتين؛ فصبر على فَقْد أبيه و أمِّه وَجده وعمّه وزوجه - السيدة خديجة؛ أم المؤمنين - رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وتربَّى يتيمًا فآواه الله تعالى.. وصبر على فَقْدِ أبنائه جميعًا ذكورًا وإناثًا في حياته، إلا فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا والتي ماتت بعده بستة أشهر.. وصبر على الأذى من قتل وتعذيب المؤمنين، وهجرتهم مرتين، وعداوة قبيلته (قريش) للإسلام ووقوفها في طريق دعوته ﷺ، هذا بجانب ما قام به ﷺ مِن غزواتٍ وجهاد وهجرة ﷺ ؟

• كان صبر مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع أتباعه الذين آمنوا به من بني إسرائيل، أعجب وأكثر من صبره على فرعون ومكره وأذاه، فقد رأى مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ العَجَب العُجَاب من بني إسرائيل، كما في قصة البقرة، وقصة عبادتهم عجل السامريِّ، وقولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] لَمَّا نجَّاهم الله من الغرق، ثم شاهدوا أقوامًا مشركين يعبدون الأوثان، وتحايلهم كما فعل أصحاب السبت، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[المائدة:٦٤]، وقولهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وما رآه من علمائهم وأمرائهم الذين فتنتهم الدنيا وفتنهم حب الجاه والسلطان، كـ (بلعام بن عوراء، وقارون، وهامان).

• ومع صبره هذا الكبير والطويل، تجده أقل صبرًا عندما كان مع فتاه (يوشع بن نون)، في رحلة تعلُّمه من (الخضر) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مما نتعلم منه أن المسلم يصبر على البلاء وعلى تحدي الكافرين والمنافقين وأذاهم، وعلى الصبر على الطاعة، ولكنه

من الصعب عليه أن يرىٰ المنكر ولا يغيِّره، ولا الباطل ولا يواجهه، ولا الخطأ والاعوجاج ولا يقدِّم النصح لصاحبه.

۞۞۞

(٢٥) صبر وصبر :

صبر مع الله، وصبر لله (من أجل الله)، وصبر في الله عَزَّوَجَلَّ.

• **صَبر السحرة**؛ فنالوا الكرامة والرِّفعة في الدنيا والآخرة، وصبرت القلة المؤمنة مع مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فنجَّاها الله عَزَّوَجَلَّ من استعباد فرعون لها وقتله للأبناء واستحيائه للنساء، وأغرق فرعون وجنوده خائبين خاسرين.

• **وصبر من نوع آخر وهو صبر أتباع فرعون وجنوده**؛ صبروا علىٰ ظُلم فرعون، وكانوا هم الأداة لهذا الظلم، وكانوا هم يدَ الظالم الذي يبطش بها، صبروا طمعًا في مال، أو نَيِّل وُدِّ فرعون والقُرب منه.

فهذا صبر وهذا صبر، ولكن أي من النوعين أنفع للعبد وخير له؟!

الصبر علىٰ الحق والدين والرضا بقضاء الله تعالىٰ وقدره، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والوقوف في مواجهة الباطل ودحضه، والصبر علىٰ نُصرة الأنبياء ودعوتهم وأتباعهم وموالاتهم، وتقديم النُّصح خالصًا لوجه الله تعالىٰ، ونفع الناس والسَّعي في مصالحهم وقضائها.

أم الصبر مع الطغاة والمستبدين، والعمل للصد عن الدين تحت أي حُجَّة وستار وذريعة تُبرِّر لهم عملهم؟.

ولكن بوقفة متأنِّية وببصيرة عاقلة تستطيع أن تتعرَّف علىٰ سُنَّة الله تعالىٰ من أن

الطُّغاة والمستبدين يشغلون حيزًا من الزمان والمكان ثم يزول عنهم المنصب، ويزولون هم عن المكان بهلاكٍ أو بغيره ثم يبقىٰ الحق شامخًا قويًّا عزيزًا بعد أن كان ضعيفًا مستضعَفًا مستكينًا.

لقد تحقَّق وعد الله تعالىٰ لُموسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ وفي قول مُوسَىٰ لأتباعه عندما قدموا له الشَّكوىٰ: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف].

فوعد الله تعالىٰ لا يَتخلَّف أبدًا عن نُصرة رُسُله وأتباعهم؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

• انظر لإخوة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: مكروا به وأَلْقَوْهُ في غيابت الجُبِّ - ظلام البئر، وتم بيع يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبدًا في سوق العبيد، فهل نالوا هم الحرية والسعادة؟ دار الزمان واستدار ثم جاءوا أذلَّاء يستعطفون يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في العطاء؛ قائلين له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف].

• أجد في بعض المُدن في عصرنا الحاضر في البلاد التي لا ترقُب في مؤمن إلًّا ولا ذمَّة كيف يقوم المسئول عن الأمن في هذه المقاطعة أو تلك المدينة بالتضييق علىٰ الحق وأهله، ومحاولة تخويفهم وتهميش دورهم في المجتمع، وهم صمام الأمن، فالمؤمن

لا يقتل ولا يسرق ولا يزني ولا يكذب ولا يغش ولا يشهد الزور؛ وهذا هو الأمن الاجتماعي والأمن الاقتصادي، فتمُر السنوات سريعة... ويطوي الزمانُ المكانَ والعبادَ، فيترك هذا المسئول منصبه إمَّا بالنقل أو الموت أو المرض أو التقاعد، وقد حمل من الأوزار ما تنوء به الجبال، ومن دعوات المظلومين والمكلومين ما تفتَّحت له أبواب السماء، فتجد خلال هذه السنوات أنَّ المآذن بقيت شامخة، وازداد إقبال الناس على الدين الحق، وخرج هو خائبًا خاسرًا. إنها السُّنن الإلهية التي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل.

• انظر إلى ما فعله (كمال أتاتورك) في أكبر محاولة في التاريخ الحديث للقضاء على الإسلام والخلافة؛ فأسقط الخلافة، وألغى اللغة العربية، ومنع الأذان، وهدم المساجد، وقتل العلماء، حتى يكاد أن يقول قائل: لن يقوم للإسلام قائمة في تركيا مرة أخرى، ثم استدار الزمان، وهلك الطاغية؛ وها هي تركيا اليوم عامرة بالمساجد، آهلة بالمؤمنين، تحاول جاهدة أن تمحو آثار هذا اللَّعين، إنها سُنَّة الله تعالى ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق].

• صبرٌ وصبر، صبر مع الحق يُكرم الله تعالى أهله وتصحبهم معيَّته جَلَّ وَعَلَا، وصبر على الباطل يمحق الله تعالى أهله وتصحبهم اللعنات حيث كانوا أو ماتوا.

• وقفة متأنِّية مع إيمان السَّحرة نتدبَّرها من خلال قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف].

• ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾: تأمَّل كيف وقع الحق وصدع أمام هذه الجموع الغفيرة،

وكيف وقع في قلوب هؤلاء السَّحرة، فحرَّك الوجدان، واهتزَّت له المشاعر، وسجدت له الأعضاء، وانشغل الفِكْر به، وزالت الغشاوة واستنار العقل بنوره، وامتلأ القلب بالإيمان.

• ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: عند ظهور الحق واستعلائه، لابُدَّ للباطل أن ينكسر وينحسر، قال تعالىٰ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء].

وللحق هيبة في القلوب؛ فانظر إلىٰ الحق الذي ظهر علىٰ يد مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وآمن به هؤلاء السَّحرة، وهم قلَّة من الرجال، كيف هزَّ الباطلَ العتيدَ العنيدَ، القويَّ المريدَ، وكيف نكَّسوا رءوسهم وانقلبوا صاغرين.

• ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾: تعبير عن الحرية علىٰ وجهها الحقيقي، والخروج بالمرء من أسر الهوىٰ والاستعباد، وتحقيرًا لسجود قوم فرعون له، وشَتَّان بين السجودين؛ فسجود السَّحرة هو سجود العزَّة والكرامة.. وسجود قوم فرعون له هو سجود الخزي والعَار والذِّلة والمهانة.

• ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾: إعلان للملأ أن الإيمان لا يخضع إلا لربٍّ واحد، وسلطان واحد، لا يحتاج لإذن من فرعون، أو تصريح منه، إنه خروج بالإيمان من عباءة الذُّل والمذلة لأهواء البشر إلىٰ حصن الله المنيع، ورُكنه الشديد؛ لذلك عبَّروا عن صحة هذا الإيمان بشوقهم إلىٰ الله تعالىٰ، ونَدَمهم علىٰ ما كان منهم من الأعمال المخالفة التي لا يحبها الله تعالىٰ، وهذا يتجلَّىٰ في قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأعراف].

• ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف]: استعانة بالله وحده

واستغاثة به، وطلب المدد منه لمواجهة أي الاحتمالات، لكي يأخذوا بعزائم الأمور، تاركين الرخص، وهكذا دعوة الأنبياء إنما تقوم على الذين يأخذون بالعزائم، ولو استعملوا الرُّخص لمَا رُفِعَتْ لهم راية، أو تحقَّقت لهم غاية.

• ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣﴾ [طه]: ختام رائع لهذه المساجلة والمناظرة، وبيان لحقيقة خالدة، وسُنَّة إلهية باقية، فكل من يشتري رضا الله عَزَّوَجَلَّ، لا يُبالي بسخط من يسخط من الخلق.

• ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢﴾ [طه]: احتقار للباطل، ولِمَا هو عليه، وضحالة لأمره في قلوبهم، فالدنيا ليست هي المقر الأخير، فساحة القضاء الحقيقية يوم القضاء؛ قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾ [الزمر].

إنها الآية التي تدل على الفرق بين صبر سحرة فرعون وثباتهم على الشدائد، مقارنة بصبر أولئك القوم الذين شاهدوا معهم هذه الآية، ثم شاهدوا ما هو أعظم منها: انغلاق البحر ونجاتهم وغرق فرعون، ثم أصابهم الوَهن بعد ذلك، وضعفت نفوسهم ومالت إلى الشِّرك تارة، وإلى عبادة العِجْل تارة أخرى، إنه الصبر الذي يعكس معادن الناس عند مواجهة الأقدار في الدنيا، وقدرتهم على الثبات ومواصلة الطريق إلى الحقِّ، فالطريق إلى الله تعالى طويل وشاقٌّ، والمتساقطون فيه كثرة.

❁❁❁

(٢٦) التوحيد توحيد قلب:

أين تجد قلبك؟

• **إن** نبيَّ الله مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ألقىٰ عصاه وكانت حيَّة في المرة الأولىٰ، وثعبانًا في المرَّة الثانية؛ وذلك لحكمة أنَّ الحية صغيرة ومُوسَىٰ ليس معه أحد مِن البشر، أما في المرة الثانية فكانت أمام فرعون وأمام السحرة أمام جموع الناس، فكانت لابد أن تكون ثعبانًا ضخمًا يدل ويبرهن علىٰ المعجزة.

انظر ماذا قال الله تعالىٰ لمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما خاف وولىٰ مدبرًا: ﴿**وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ١٠**﴾ [النمل]، وقال تعالىٰ: ﴿**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ٣١**﴾ [القصص]، وقال تعالىٰ: ﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ٦٨**﴾ [طه].

• خوف مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ العصا لما تحولت إلىٰ حيَّة أو ثُعبان، ثم خوف ثانٍ في كتاب الله تعالىٰ عن مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالىٰ: ﴿**وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ١٥**﴾ [القصص]، ثم قال مُوسَىٰ لربه جَلَّ وَعَلَا: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤**﴾ [القصص].

• **نوعان من الخوف**: خوفه مِنَ القتل، وخوفه مِنَ التَّكذيب، وهذا الخوف من مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في المرة الأولى، والثانية خوف فِطْري مجبولة عليه النفس البشريَّة، أمَّا خوفه مِنَ التَّكذيب فهو خوف على الدعوة، وشفقة على المدعُوِّ؛ لأنه لو كذَّب لسقط في النَّار، ومهمَّة الرُّسل هي إنقاذ النفس من الهلاك والنيران.

لو قارنت ذلك بالموقف المليء بالرُّعب والهلع والفزع يوم خروج الذين آمنوا معه ليلًا خائفين من أن يلحقهم فرعون فيقتلهم، وعند شروق الشمس وصلوا إلى البحر، وتراء الجمعان على مرمى البصر، وبلغت قلوبهم الحناجر خوفًا وفزعًا؛ فالبحر أمامهم، وفرعون وجنده بعتادهم وسلاحهم وراءهم، فلا مفرَّ مِنَ الموت أو الغرق، ولا ثالثة أمام عقولهم المحدودة، ولا مخرج لهم، حتى قالوا لمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء]، في هذا الجو العصيب ثبت مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يخف، وقالَ واثقًا بربِّه جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء]، فما الفرق بين هذه المواقف؟

ذكرنا أنَّ الخوف مِنْ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان خوفًا بعيدًا عن الشرك، إِمَّا خوف فِطريٌّ، وإما خوف على عدم هداية الناس.

أما هذا الموقف فإنه يتجلَّى فيه أعظم مواقف التَّوحيد وثبات القلب على الإيمان، والثِّقة في الرَّحمن جَلَّ وَعَلَا.

لذلك نقول: التَّوحيد توحيد قلب، لماذا؟

فالمحبَّة محلُّها القلب، واليقين والثقة في الله محلُّها القلب، والخوف والرجاء محلُّه القلب، والتَّقوى محلُّها القلب.

والسؤال الذي نسأله: **أين تجد قلبك؟**

فانظر إلى ثبات قلوبهم على التوحيد وقوّة إيمانهم، فقالوا بثبات وثقة وعزَّة: ﴿**فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣**﴾ [طه].

ولا نعلم دليلًا أنَّ فرعون تمكَّن منهم أو أساء إليهم، وذلك تمشِّيًا وتوافقًا مع السُّنةِ الإلهيَّة. فكلما هاب القلبُ الظالمَ تمكَّن منه، وكلما هَابَ القلبُ الربَّ جَلَّ وَعَلَا هابه الظالم ولم يتمكن منه. فالضرر والنفع لا يملكه ظالم أو طاغية أو مُستبدٌّ على وجه الأرض إلا بإذن الله تعالى وتقديره.

هنا تعلَّق قلب مُوسَى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالله عَزَّوَجَلَّ، ولم يفكر في الأمر بعقله قبل إيمانه كما قاسها أصحابه، إنما غلبه إيمانه وتقواه.

وكانت السُّنَّة الإلهية: ﴿**وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ**﴾ [**الطلاق:٢-٣**]. إن النصر مع الصبر، وإن الفرجَ مع الكَرب، وإنَّ بعدَ العُسرِ يُسرًا، ومن كان الله معه فلا غالب له، ومَنۡ يخذله الله فلا ناصرَ له، والعِبرة أين تجد قلبك؟!.

❁❁❁

(٢٧) الهجرة سُنَّة الأنبياء والمرسلين:

وفي ذلك درس هام: فلو خرج أهل الصلاح من قرية؛ فهذا نذير شؤم عليهم بتعجيل عذاب الله لهم؛ قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣** ﴾ [الأنفال].

• إذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردَّ له من الله، وهذا السوء من العذاب غالبًا لا يأتي الأمم إلا بعد هجرة النَّبي أو الرسول إياهم.

• خرج نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه في السفينة؛ فأغرق الله الكافرين، وكان لا عاصم لهم من أمر الله إلا مَنْ رَحِم.

• وخرج لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقال: إني مهاجر إلى ربي، فأهلك الله تعالى قريته وجعل عاليها أسفلها.

• وخرج مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فأغرق الله تعالى فرعون وجنوده.

• وخرج رسول الله محمد ﷺ؛ فعذَّب الله قريشًا، وقتل صناديد الكفر فيها.

كل ما سبق كان خروجهم بإذن الله تعالى وأمره لهم، إلا يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لَمَّا خرج يائسًا من إيمان قومه، ولم يتلقَّ الإذن بالخروج التقمه الحوت وهو مُليم.

• وسُنَّة العذاب والهلاك لا تكون عامة إِلَّا بسبب الذنوب والمعاصي ومعاداة رُسُل الله عَزَّوَجَلَّ. فالذنوب والمعاصي أكبر مِعْوَل هدم للأمم والشعوب والأفراد؛ قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[طه].

• ولقد ميَّز الله تعالى أمَّة الإسلام بحفظها من الهلاك العام، كما ميَّزها بأن هجرة نبيها ﷺ كانت فتحًا وعِزًّا ونصرًا وانتشارًا للإسلام، ولم تكن هلاكًا لقومه كما حدث لمن سبقه من الرُّسُل، بل دعا النَّبيُّ ﷺ لقومه قائلًا: { **اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون** }. وعندما جاءه جِبْرِيلُ، نَادَاه وَقَالَ لَهُ: «إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ،

فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** }»، وكان كما أخبر ﷺ - فكان خالد بن الوليد سيف الله المسلول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وكان عِكْرِمة بن أبي جهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وكان عبد الله ابن عبد الله بن سلول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وغيرهم كثير.

• ولكن هذه الميزة لأمة الإسلام توجب على أهل الإسلام اليقظة والحذر من الذنوب والمعاصي، وعدم العجب والغرور بهذه الميزات لأن الله عَزَّ وَجَلَّ توعَّدهم بسُنَّة الاستبدال من سُنَّة العذاب والهلاك العام. فقال تعالى: ﴿**وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم**﴾ [محمد:٣٨].

❁❁❁

(٢٨) (مراغمًا كثيرًا وسَعة):

قال تعالى: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾**﴾ [النساء].

مُراغَمًا: والمُراغَم مَصْدَرٌ، تَقُولُ الْعَرَبُ: رَاغَمَ فُلَانٌ قَوْمَهُ مُرَاغَمًا ومُراغَمَة.

والمراد به: الذَّهَابُ فِي الْأَرْضِ، والتَّحَوُّلُ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ.

والمعنى الذي تستريح معه النفس، وتشعر بالسعادة والطمأنينة عندما تخرج مهاجرة أو مجاهدة في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ خارج أوطانها: أن هذا الخروج يرغم الكفار

فيجعلهم في غيظ شديد؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران:١١٩] ونكد مستمر، وقلق دائم، وخوف مستمر.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِنَّ الْمُرَاغَمَ مَوْضِعُ الْمُرَاغَمَةِ ....، وَهُوَ أَنْ يُرْغِمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَنَازِعَيْنِ أَنْفَ صَاحِبِهِ بِأَنْ يَغْلِبَهُ عَلَىٰ مُرَادِهِ، فَكَأَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ أَرْغَمُوا أُنُوفَ الْمَحْبُوسِينَ بِمَكَّةَ، فَلَوْ هَاجَرَ مِنْهُمْ مُهَاجِرٌ لَأَرْغَمَ أُنُوفَ قُرَيْشٍ لِحُصُولِهِ فِي مَنَعَةٍ مِنْهُمْ، فَتِلْكَ الْمَنَعَةُ هِيَ مَوْضِعُ الْمُرَاغَمَةِ»(١)

• سبحان الله! خرج موسىٰ ومعه القلة المؤمنة، بعد أن كانوا مستضعفين لا يستطيعون إقامة دين ولا دنيا، وفرعون يحتقر عددهم وقوتهم ويصفهم بأنهم «شرذمة قليلون»، وكان من المتوقَّع أن يفرح لخروجهم فقد اطمأن ببُعدهم، واستراح منهم ومن القلق والخوف الناتج عنده بوجودهم في مملكته...

• لكنه أرسل في المدائن حاشرين، لم يكفِه عتادُه ولا جنوده، بل طلب التحالفات والمساعدات بالرجال والعتاد، كأنه مقبل علىٰ فتح العالَم وغزوه، وليس مواجهة قلة قليلة لا سلاح معها ولا عتاد سوىٰ الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ واتِّباع رسوله موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ – انظر لهذه المعادلة:

فرعون بمملكته وجنده وأمواله = موسى والقلة المؤمنة معه

فخرج مسرعًا ليدركهم قبل طلوع النهار.

• وخرج أصحاب النبي ﷺ إلىٰ الحبشة خائفين من تعذيب كفار قريش لهم، وهم قلة، فقد كانوا في المرة الأولىٰ ثلاثة عشر رجلًا وامرأتين، وفي المرة الثانية نيِّفًا

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٣٤٨).

وثلاثين رجلًا وامرأة.. فخرج وفد قريش لمقابلة ملك الحبشة لتسليمهم.

• وهاجر النبي ﷺ هو وصاحبه إلى المدينة، فهبَّت قريش عن بكرة أبيها تبحث عنهم، وتطلب أثرهم، وفرضت المكافآت والعطايا لمن يدل عليهم.

• إنها سُنَّة الله تعالى في خروج أهل الإيمان المستضعفين من تحت وطأة الجبارين الطغاة.

وفي العصر الحديث: خرج أبناء المسلمين من بلاد العرب وغيرها من أهل الصلاح والتقى لمساعدة أفغانستان في حربها ضد الشيوعية وجيوشها، والرأسمالية وبطشها، فما كان إلا الغيظ والجمهرة والتحالف ضدهم.

• وتكرَّر المشهد ثانية في الشام؛ لما خرج ما يُسمَّى بتنظيم الدولة الإسلامية إلى بلاد الشام يجمع الشباب المسلم المستضعف في بلاده، فما لبث أن قذف الله تعالى الرعب في قلوب أعدائه من الشيعة والنصارى والمرتدين، فتحزَّبوا لقتالهم.

• إنها سُنَّة الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.آيات الله تعالى المقروءة، تراها وتشاهدها وتشعر بها في آيات الله تعالى المنظورة في أرض الله عَزَّوَجَلَّ.

❁❁❁

(٢٩) ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ :

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ﴾ [الأنفال:٥٩، ٦٠]، وقال ﷺ: **{نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ}**(١).

(١) أخرجه البخاري: ك: التيمم، ح (٣٣٥).

• وهذا الرعب جند من جنود الحق جَلَّ وَعَلَا؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، ميَّز الله تعالى به رسوله الخاتم وأمته، وجعلها نعمة خاصة بهم، وإلا فما هو سِرُّ هذا الرعب والفزع عند خروج القلة المؤمنة المستضعفة من تحت وطأة الظالمين المفسدين؟

• بهذا الرعب تستطيع أن تفهم علة ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة].

وتفهم سِرَّ قوة العقيدة والتوحيد، وثبات أهل الحق عليها، وأن المؤمن صاحب العقيدة الصحيحة كالجبال الراسيات.

ومن أسرار ذلك أن هيبة أهل الحق مستمدة من هيبة الله تعالى، وغيرته على أوليائه، ألم تسمع قول الصادق المصدوق ﷺ متحدِّثًا عن ربه تبارك وتعالى في الحديث القدسي: { مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ }(١).

كل ذلك ينعم الله تعالى به على أهل الحق والثبات عوضًا لهم عن عددهم، وقله عتادهم، وليعلم الناس أن الله تعالى يؤيدهم وهو معهم، فمن يخذلهم؟!.

❁❁❁

(١) أخرجه البخاري، ك: الرقاق، ب: التواضع، ح (٦٥٠٢).

(٣٠) فقه الاستضعاف:

بيَّن الله تعالىٰ لعباده أن أرضه واسعة، وهدَّد وأوعد كل من يستطيع الهجرة والفرار بدينه ولم يفعل بالعذاب والخزي في الدنيا والآخرة (١).

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء]. وذلك لأن بقاء المسلم علىٰ حالة الاستضعاف مع قدرته علىٰ الهجرة يناقض العزَّة التي كتبها الله تعالىٰ لنفسه ولرسوله وللمؤمنين، ويناقض صفة العُلوِّ التي كتبها الله تعالىٰ لأهل الإيمان؛ فلا يستطيع المستضعَف أن يستعلي بهذا الدين، ولا أن يعتزَّ به، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران]. كما أن المستضعَف لا يستطيع أن يؤدي شرائع دينه وعباداته، ولا أن يقيم حدوده كما أُمِرَ، كما أنه مطالَب بالدعوة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه أصول في هذا الدين، ولكن الاستضعاف لايمكنه من القيام بكل هذه الواجبات.

❁❁❁

(٣١) فقه الهجرة:

- خرج يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فالتقمه الحوت وهو مليم، وخرج موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

---

(١) انظر كتابنا: «قصة فتية الكهف.. دروس وعبر».

فأجرىٰ الله تعالىٰ علىٰ يديه المعجزة وأغرق فرعون وجنده، وخرج فتية أهل الكهف، فكان خروجهم آية في الحدث والزمان والمكان إلىٰ قيام السَّاعة.

وهاجر إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واعتزل قومه بعد أن بذل وسعه في دعوتهم بالحجة والبيان فلم يؤمنوا، واشتدَّ أذاهم له، وألقَوْه في النار.

وهاجر أصحابُ النَّبيِّ ﷺ مرتين، وهاجر هو - بأبي وأمي ﷺ - إلىٰ المدينة النبويَّة، فكانت إيذانًا بميلاد نصر هذا الدين.

وهاجر قاتلُ التسعة والتسعين نفسًا فتابَ الله تعالىٰ عليه في الحديث المشهور: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا...» الحديث[١].

• لذلك لابُدَّ من دراسة ثلاثة أمور في هذا المجال، وهي: «العزلة والهجرة، والجهاد»[٢]

متىٰ تكون العُزلة أفضل مِنَ الدَّعوة والصَّبر علىٰ أذىٰ النَّاس؟ ومتىٰ تجب الهجرة لدفع الذُّل والمذلَّة عن الدِّين والنَّفس والإعداد لمواجهة الباطل؟ ومتىٰ تكون المواجهة والجهاد والقِتال واجبًا، وأفضل مِنَ العُزلة والهجرة؟.

وليس هذا البحث محل تفصيل هذه الأحكام، ولكننا نقول، وباختصار شديد:

لَأَنْ تخالط الناس وتدعوهم وتصبر على أذاهم فذلك أفضل من اعتزهلم، أمَّا إذا كان في الخلطة معهم ضياع للدين، وخوف على العِرْضِ وانحياز إلى ما هم عليه من الدنيا فتميل إليهم شيئًا فشيئًا، عندها يكون الانتقالَ لبيئة أصلح، ومجتمع

---

(١) أخرجه مسلم، ك: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ح (٢٧٦٦).

(٢) يُراجع كتاب «العزلة» للخطابي لمعرفة مزيد من أحكام العزلة والهجرة والجهاد.

أفضل هو الأولى؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود].

وفي كل الأحوال على المرء أن يُعِدَّ نفسه نفسيًّا ومعنويًّا وجسديًّا وماليًّا، وأن يكون مستعدًّا للجهاد والقتال إذا طُلب منه ذلك، وحان وقته وموعده.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ...﴾ [الأنفال: ٦٠].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: { **مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ** }(١).

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: { **مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ** }(٢).

إذًا فللعُزلَة فقه وأحكام، ولإقامة الحُجَّة وَقْتٌ وبيان وفقه، وللجهاد والخروج طائفة مؤهلة لذلك، مسئولة عنه، عالمة بأحكامه وقواعده.

فقد يكون الجهادُ فرضَ عين على كل مسلم، وقد يكون فرضَ كفاية، ويكون بالنفس، والمال، والوقت، والعلم، والقلم، والحُجَّة، والبيان، وأعلاه ما كان بالسلاح والسِّنان، وفي سبيل الله وحده، لا تشوبه نيَّة شُهرة، أو رياء أو مدح، أو أي غرض دنيويٍّ.

---

(١) أخرجه مسلم، ك: الإمارة، ب: ذم من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو، ح (١٩١٠).
(٢) أخرجه مسلم، ك: الإمارة، ب: استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، ح (١٩٠٩).

• وقد كانت حياة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون وبني إسرائيل أمثلة لفقه العُزلة والهجرة والمواجهة والقتال حتىٰ قالوا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة]، فخذلهم الله تعالىٰ وحرَّم عليهم الأرض المقدسة أربعين عامًا يتيهون في الأرض، وكانوا قومًا فاسقين.

❁❁❁

(٣٢) سُنَّة الاستدراج والإمهال:

قال الله تعالىٰ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف].

وفي الحديث: { إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ }(١).

وإذا رأيت العبدَ يُنْعِم الله تعالىٰ عليه وهو قائم علىٰ معصية الله فاعلم أنه منه استدراج.

وهذه الغفلة التي يقبع فيها الظالمون، الغفلة عن الله والدار الآخرة، والغفلة عن الحق، يناسبها انتقام الله تعالىٰ منهم فجأة دون إمهال أو إنذار، فيشغلهم بالدنيا والماديات والشهوات، ولا يجعل لديهم وقتًا للتفكير ومحاسبة النفس والتوبة، وهذا من غضب الله عليهم، جزاءًا وِفَاقًا لظلمهم وإعراضهم.

انظر كيف استدرج اللهُ تعالىٰ قارونَ حتىٰ اغترَّ بأمواله.. وكيف استدرج اللهُ تعالىٰ فرعونَ حتىٰ اغترَّ بمُلكه؛ قال تعالىٰ علىٰ لسان فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ

---

(١) أخرجه البخاري، ك: تفسير القرآن، ب: قَوْلِهِ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢]، ح (٤٦٨٦).

﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١﴾ [الزخرف]. فخسف الأرض بالأول وبأمواله، وأغرق الثاني وجنده في البحر.

وهذه السُّنَّة تدل على أنَّ الله تعالى لا يغفل ولا ينام ولا ينسى، فهو سبحانه يُمهل ولا يُهمل، وخاصة دعوة المظلوم، فكَمْ مِنْ أم ثكلى قُتِل ولدُها، فكان دعاؤها على الظالمين شغلَها الشاغل.. وكم من رجال اعتقلهم فرعون وسجنهم وهم لا ذنب لهم إلا أنهم قالوا (ربنا الله)، فانشغل كل منهم بالدعاء على من ظلموه.. وكم من أُناس صُودِرت أموالهم ظلمًا وزورًا، فشعروا بالظلم والقهر، فكان دعاؤهم على الظالمين مستمرًّا، والله تعالى يقول لدعوة المظلوم: { وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ }[1].

❁❁❁

(٣٣) معيَّة المراقبة يَعقبها معيَّة النصرة والمؤازرة:

قال النبيُّ ﷺ لصاحبه وهو في الغار ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، فأعقبها الله سبحانه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ [التوبة]، وافتتح هذه الآية بقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾؛ فجاءت النُّصرة والسَّكينة بعد معيَّة المراقبة والمعيَّة لله عَزَّوَجَلَّ.

وعندما رأى أصحابُ موسى فرعونَ وجنودَه قالوا ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ فقال

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ح (٣٧١٨)، السلسلة الصحيحة للألباني ح (٨٧٠).

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦١- ٦٢]، فأعقبها الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء:٦٣].

فكن مع الله عَزَّوَجَلَّ تراقبه، واستحضر أنه ناظر إليك، يشاهدك ويرقب عملك؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء].

• وليتعبد المسلم لربه سبحانه وتعالىٰ علىٰ هذه العقيدة، وهي أن الله تعالىٰ يراه.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِبَعْضِ جَسَدِي، فَقَالَ: { اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَكُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ }(١).

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ [الشعراء]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة:١٠٥].

• **والناس من جهة نظر الله تعالى إليهم على قسمين:**

- **الأول:** يعلم علم اليقين أن الله يراه، وهو علىٰ دربين:

أحدهما: يعلم أن الله يراه، ولكنه لا يُبالي به، ولا بنظره سبحانه إليه، وهذا حال الفاسق والمنافق والكافر.

ثانيهما: يعلم أن الله يراه، فيستحيي من نظره له، فيمنعه هذا الحياء من معصية الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يقع فيها إلا في غفلة، وسريعًا ما يتذكَّر ويسارع بالتوبة والاستغفار

(١) أخرجه أحمد، ح (٦١٥٦)، والنسائي في السنن الكبرى، ح (١١٨٠٣)، وانظر السلسلة الصحيحة برقم (١٧٤٣).

والإقلاع، ثم يتولَّد في قلبه خوف وخشية من نظر الملِك المهيمن القوي العظيم جَلَّوَعَلَا، وهذا الخوف يمنعه من ظلم الناس.

وهاتان هما علامة التُّقَى «حياء من الله يحجبه عن معاصي الله، وخوف من الله تعالىٰ يمنعه عن ظلم الناس»، فيسير علىٰ طاعة الله بنور الله، ويحذر من معصية الله تعالىٰ وظلم الناس حياءً من الله سبحانه.

فالتَّقِيُّ هو الذي يُقبِل علىٰ الأوامر، ويجتنب النواهي والزواجر.

- **والثاني:** ينكر نظر الله تعالىٰ إليه، وهذا حال الملحد الكافر المرتد.

فإذا استشعر العبد رقابه الله تعالىٰ، شعر بمعيَّته عَزَّوَجَلَّ، فتلحقه النصرة والمؤازرة والحماية والعناية والرعاية واللطف من الله تعالىٰ؛ ألم تسمع لقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشورى].

❁❁❁

(٣٤) الأمل والتفاؤل وعدم اليأس:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف].

ويبثُّ فيهم موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الأملَ، ويبعث فيهم التفاؤل، والثقة بموعود الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، فإما إلىٰ النصر والعزَّة فوق الأنام، وإما إلىٰ الله في

الخالدين؛ ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران].

ورحم الله القائل:

إذا كُنْتَ باللهِ مُستَعصِمًا فماذا يَضيرُكَ كيدُ العَبيدِ؟

• والمسلم يعيش بالأمل حتى يأتيه الفَرَج والنصر، ويكفيه أن يعيش سعيدًا بالتفاؤل، فلا سبيل لليأس أو القنوط إلى قلبه وحياته.

وكما تعلَّمنا من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التفاؤل، نتعلَّمه أيضًا من مَدرسة سيِّد الخلق، ومعلِّم الخلق محمدٍ ﷺ، حيث رُوِيَ أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لسُراقَةَ بْنِ جُعْشُمٍ وَنَظَرَ إِلَى ذِرَاعَيْهِ وهُوَ في طَرِيقِ الهِجرَةِ: **{كَأَنِّي بِكَ قَدْ لَبِسْتَ سُوَارَيْ كِسْرَى}**(١).

وعندما فتح الله على المسلمين العراق في عهد عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأُتِي بأموالِ كِسرَىٰ وخَزائِنِهِ، فَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَفِي الْقَوْمِ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، فَأَلْقَى إِلَيْهِ عمرُ سِوَارَيْ كِسْرَىٰ بْنِ هُرْمُزَ فَجَعَلَهُمَا فِي يَدِهِ، فَبَلَغَا مَنْكِبَيْهِ، فَلَمَّا رَآهُمَا فِي يَدَيْ سُرَاقَةَ قَالَ: « **الْحَمْدُ للهِ، سُوَارَيْ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ فِي يَدِ سُرَاقَةَ ابْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ أَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ** »(٢).

• ويَعِدُ النبيُّ ﷺ أصحابه حين ملأهم الرعب من تكتل أحزاب الكفر عليهم في غزوة الأحزاب- يعدهم بمفاتيح الشام وفارس واليمن، وحدث ما وعدهم به ﷺ؛ فالمؤمن الحق لا يعرف اليأس ولا الفشل، إنما يعيش بالأمل والتفاؤل مستعينًا بالله عَزَّوَجَلَّ وبعبادته؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا

(١) السنن الكبرى للبيهقي، ح (١٣٠٣٣).
(٢) السنن الكبرى للبيهقي، ح (١٣٠٣٦)، وانظر: معرفة السنن والآثار (١٣١٩٦) للخراساني.

﴿لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة].

❁❁❁

(٣٥) الثبات وقت المِحن:

الثبات على دين الله عَزَّوَجَلَّ من أجلِّ النعم وأعظمِها، ولا يجد المسلم طعمًا للسعادة مثل ما يجدها فيما ميَّزه الله تعالى به من الثبات على الحق، في وقت ضلَّ فيه كثير من الخلق عن الحق سبحانه.

قال الله تعالى لنبيِّه ممتنًّا عليه بهذه النعمة: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ [الإسراء].

وكان من دعائه ﷺ: { **يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ** }(١).

ومن أدعية القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران].

فالطريق إلى الله تعالى طويل وشاقٌّ، والمتساقطون فيه كُثُرٌ، والسعيد والفائز من اتَّعظ بغيره، ووصل إلى نهاية الطريق، والعبرة بالخواتيم.

وفي الحديث: { **...إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا** }(٢).

---

(١) أخرجه أحمد، ح (١٢١٠٧)، والترمذي، ح (٢١٤٠)، وقال: حديث حسن.

(١) أخرجه البخاري، ك: أحاديث الأنبياء، ب: خلق آدم وذريته، ح (٣٣٣٢)، ومسلم، ك: القدر، ب: كَيْفِيَّةِ خَلْقِ الْآدَمِيِّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَكِتَابَةِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقَاوَتِهِ وَسَعَادَتِهِ، ح (٢٦٤٣).

• ولأهمية الثبات جعل الله عَزَّوَجَلَّ المسلم الذي يفرُّ من المعركة - غير متحرف لقتال أو متحيز إلىٰ فئة - مرتكبًا لكبيرة من كبائر الذنوب، وهي الفرار من الزحف؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال].

•عندما ثبت أتباع موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أمام بطش فرعون وقهره، أنعم الله تعالىٰ عليهم بنعمتين كلاهما عظيم:

النعمة الأولى: أغرق فرعون وأهلكه مع جنده.

النعمة الثانية: أورث بني إسرائيل المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها. نسأل الله تعالىٰ الثبات حتىٰ الممات، وحُسنَ الخاتمة.

❁ ❁ ❁

(٣٦) الفرج بعد الشِّدَّة:

قال الله تعالىٰ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق]، وهذه الآية تفتح أبواب الفرج والأمل أمام اليائسين والمحزونين.

قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَرْبَعُ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ إِذَا قَرَأْتُهُنَّ مَا أُبَالِي مَا أُصْبِحُ عَلَيْهِ وَمَا أُمْسِي: قوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾[الأنعام]،

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧](١)، وَقَوْلُهُ: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٢)، وَقَوْلُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦] »(٣).

• ولن يَغلِبُ عُسرٌ يُسْرَيْنِ؛ قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح]؛ هذا قول ابن مسعود وابن عمر وابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

والآية تتكلَّم علىٰ عُسْرٍ واحدٍ (معرفة)، ويُسرين مختلفين (نكرة)، والنكرة إذا تكرَّرت فهما شيئان مختلفان.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: « لَوْ أَنَّ الْعُسْرَ دَخَلَ فِي جُحْرٍ لَجَاءَ الْيُسْرُ حَتَّىٰ يَدْخُلَ مَعَهُ » ثُمَّ قَرَأَ الآيَةَ (٤).

فإذا ضاقَتْ بِكَ الدُّنيا فَفَكِّرْ في (أَلَم نَشرَحْ)

فَعُسْرٌ بينَ يُسْرَيْنِ إذا قَدَّرْتَهُ تَفْرَحْ

• **عوامل تساعد على اليقين بالفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر:**

١- صحَّة العقيدة؛ وفي الحديث: { يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ... رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ }(٥).

---

(١) فلا كاشف، ولا رادَّ؛ (لا) النافية للجنس والتي تدل على ثبوت النفي وعمومه.

(٢) السين تدل على قُرب الحصول، والعُسر واليُسر نكرتان تدلان على العموم، فلا يوجد عُسر فوق قدرة الله، ولا يوجد ضيق فوق رحمة الله تعالى.

(٣) فضائل القرآن، للقاسم بن سلام، ب: فَضْلِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، رقم (٤٥٨).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، (٩٥٣٩)، وابن المبارك في الزهد والرقائق (٢/ ٣٤).

(٥) أخرجه أحمد، ح (٢٦٦٩)، والترمذي، أبواب صفة القيامة، ح (٢٥١٦)، وقال: حسن صحيح.

وفي رواية: { وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا }(١).

٢- صحَّة التوكل على الله؛ فالتوكل على الله نصف الإيمان، وشرط صحته؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة]. وصحَّة التوكل باب عظيم من أبواب تفريج الكروب(٢).

٣- أن تعلم أن كل أمر في الدنيا له ظاهر وباطن، وأنت لا تعلم إلا الظاهر؛ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم]. فكم من شرٍّ لاح لك ثم بان لك أنه خير، وكم من خيرٍ لاح لك ثم بان لك أنه شرٌّ؛ قال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

وكلّ (عسىٰ) في القرآن تحقَّقت إلا واحدة؛ وهي في قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم:٥].

وتأمَّل قصة الرجل الذي كان ملازمًا للأمير في سفره وترحاله، فاشتكىٰ الأمير وجعًا في أصابع يديه، فقرَّر الأطباء قطعها، فقال له: «لعلَّه خير»، فغضب منه

(١) أخرجه أحمد، ح (٢٨٠٣).
(٢) انظر كتابنا «قصة أصحاب الغار.. دروس وعبر».

وسجنه فقال: «لعلَّه خير» .. وتمرُّ الأيام ويخرج الأمير في رحلة صيد، ويقع في أسر عصابة تعبد الأصنام، فوجدوه شابًّا وسيمًا عليه أثر النعمة، فقالوا: «نقدِّمه قربانًا للآلهة»، فلما وجدوا أصابعه مقطوعة، قالوا: «به عيب لا يصلُح قربانًا»، فخلَّوا سبيله، فلما عاد أطلق سراح الرجل، وقال له: الآن علمتُ الخير في قطع أصابعي، فما هو الخير في سجنك»؟ قال: «أيها الأمير؛ لو كنتُ معك لقربوني إلى الآلهة، وهذا هو الخير».

٤- لا تيأس من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون؛ قالها سيدنا يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد بلائه بفقدان ولديه (يوسف وأخيه) وَفَقْدِ بصره، وأمر أولاده أن يتحسَّسوا أخبار يوسف وأخيه، وألا ييأسوا من روح الله.

يا صاحبَ الهَمِّ إنَّ الهم مُنْفَرِجُ أَبْشِــرْ بخيرٍ فـإنَّ الفَـارِجَ اللهُ
اللهُ يُحدِثُ بعدَ العُسْرِ مَيْسَـرَةً لا تَيْـأَسَنَّ فـإنَّ الكـاشِفَ اللهُ
فواللهِ مالَكَ إلا اللهُ مِنْ أَحَدٍ فَحَسْبُكَ اللهُ في كُلٍّ لَكَ اللهُ

٥- أن تعلم أن الأيام دول؛ يرفع الله أقوامًا ويخفِض آخرين. فكم من سقيمٍ عاش حينًا من الدهر، وكم من سليم مات دون علَّة، والدنيا لا تستقرُّ على حال؛ قال الله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٤٠].

• وحياة الأنبياء والرسل قائمة على كرب جاء بعده فَرَج، وعلى عُسر أعقبه يُسرٌ، وشدةٍ أعقبها فَرَج.

من كان يظن أن هاجر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا وهي تسعى بين الصفا والمروة أن الله تعالى يَفَجِّر

لها عند قدم الرضيع عين ماء «زمزم»، والتي لها آلاف السنين، ولم ينضب ماؤها بعدُ، ومن كان يظن أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يخرج من السجن ويلي خزائن الأرض؟

٦- الدعاء والتضرع إلى الله؛ قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٢]، وانظر كيف فرَّج الله تعالىٰ كرب بني إسرائيل، فهل كان يظن واحد منهم أن فرعون يهلك بهذه الطريقة؟.

❁❁❁

(٣٧) مَنْ أحق بالأمن ؟

• فرعون كان يملك القوَّة، والسُّلطة، والجاه، والمال، والعتاد، ، والبطش، والتَّنكيل؛ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص].

• بينما موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان لا يملك إلا نفسه وأخاه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة].

فَمَنْ مِن الفريقين أحق بالأمن؟ لا شكَّ أن أصحاب العقول المادية تقول – بالطبع –: إنه فرعون!، لكن الحقيقة والواقع غير ذلك، ولاحظ معي ما يلي:

١ـ فقد عاش فرعون فزِعًا خائفًا، حتىٰ مِنَ الأطفال الرُّضَّع خشية أنْ يخرج منهم فردٌ واحدٌ ليقتله. فرد واحد وليس جيش أو قبيلة، مع أنه يملك محاربة أكثر من ذلك.

٢- عاش في وهم وخيال؛ لأنَّ الذي أخبره بقتلِهِ هُم السَّحرة والمنجِّمون، وهو يعلم خداعهم وأساليبهم، لكنَّهُ قَدَرُ الله تعالىٰ الذي أعمَىٰ أبصارهم وبصائرهم، وطمس علىٰ قلوبهم، وهو أيضًا لا يملك التَّفكير السليم، ولا الرأي السديد، وهذا شأن كل مستبِدٍّ يمتلك القوَّة الظاهرة والمادية.

٣- كان في إمكانه أن يستخدم وسائل أخرىٰ غير القتل للأطفال الأبرياء الرضَّع بلا رحمة أو إنسانية، ولكنه إذا غاب الإيمان ضاق الأفق.

٤- سخَّر إمكانيات دولته وجنوده في الهدم والسَّلب والنَّهب، وتسبب في كراهية شعبه وقومه له ولنظام حكمه، ونال سخط الله تعالىٰ وغضبه، ووضع نفسه في مأزق التحدي ومحادة الله ورسله الكرام.

٥- كان علىٰ يقين أنه إذا حان الأجل انقطعت الأسباب والماديات، ولكن غروره أعماه، وطمس علىٰ قلبه وفكره.

بينما موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يشعر بالأمن النفسي والأمان، ويأوي إلىٰ الظلِّ، ويُناجي ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص]، ويقوم علىٰ خدمة الناس، ويسقي الغنم لابنتي «شُعيب»، ويدعو إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويحارب الظلم في كل مكان.

ويتكرَّر السؤال: **مَن أحقُّ بالأمن؟**

• في قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه الذين يملكون البَطش والجاه والمال والسلطان والقوّة، وهو بمفرده، لكنه بإيمانه أُمَّةٌ ترجح عنهم، ويحاول قومه أن يخوِّفوه بآلهتهم المزعومة (الأصنام)، فيقيم عليهم الحُجَّة: كيف أنتم لا تخافون من الله عَزَّوَجَلَّ الذي أشركتم معه هذه الآلهة الباطلة؟! يلقونه في النار، وهم في رعبٍ

وفزع، بينما يُلقَىٰ في النار وهو مطمئن، وتكون عليه بردًا وسلامًا.

لذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ في الفريقين: **مَنْ أحقَّ بالأمن؟**

وأجاب جَلَّوَعَلَا بقوله تعالىٰ: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢**﴾ [الأنعام].

۞۞۞

(٣٨) بطانة السوء:

ما من نبيٍّ أو رسولٍ أو مَلِك أو أمير أو حاكم أو سلطان إِلَّا وله بطانتان: بطانة طيبة صالحة تحضُّه علىٰ الخير وتأمره به، وبطانة سوء تأمره بالشَّرِّ وتحضُّه عليه.

وبطانة فرعون كانت مِن الصِنْف السيِّئ؛ قالت له: ﴿**أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ**﴾ [الأعراف:١٢٧]، فاستجاب لهم فرعون قائلًا مغرورًا بعزِّة: ﴿**سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧**﴾ [الأعراف].

بطانة السوء من الأمراء والوزراء والقادة والجنود ورجال الأعمال وأتباعهم، تقع علىٰ عاتقهم مسئولية إيذاء الصالحين، وسلب الأموال، وبثِّ الرُّعب هنا وهناك.

ومن فساد الحُكم بقاء هذه البطانة لأنها تشوِّه الحقائق، وتزوِّر له المستندات لبقاء المنافع والمصالح في أيديها، وهي غاشَّةٌ له، وتكون في الغالب سبب غضب الله تعالىٰ عليه، أو غضب شعبه وقومه عليه، وهذا من سُنَن الله تعالىٰ التي لا تتغيَّر ولا تتحوَّل ولا تتبدَّل.

وفي الحديث: { **إِنَّ اللهَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً إِلَّا وَلَهُ بِطَانَتَانِ، بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ**

بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا، وَمَنْ يُوقَ بِطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وُقِيَ }(١).

۞۞۞

(٣٩) حتمية الصراع بين الحق والباطل:

قال تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦ ﴾ [الشعراء].

• الصراع بين الحقّ والباطل أزلي، منذ خلق الله عَزَّوَجَلَّ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى قيام الساعة، ويخضع لسُنَّة التداول: يومٌ له ويومٌ عليه.

بدأ الصراع بإغواء الشيطان (ممثِّلًا للباطل) آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ (ممثِّلًا للحق)، فأُخرِج من الجنة، وهبطا - آدم وحواء - إلى الأرض، واستمر الصراع حتى قتَلَ قابيلُ هابيلَ؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠ ﴾ [المائدة].

---

(١) أخرجه أحمد، ح (٧٢٣٩)، والترمذي، أبواب الزهد، ب: مَا جَاءَ فِي مَعِيشَةِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ح (٢٣٦٩)، وقال: حسن صحيح غريب.

والباطل يمتاز في صراعه مع الحقِّ بالعناد والجبروت والمكر والحيلة والخداع، والقتل إن لزم الأمر؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

ولا يستقِرُّ للباطل قرارٌ، ولا يهدأ له بالٌ حتىٰ يقضي علىٰ الحقِّ أو يُخرجه من بلدته ومن تحت سيطرته، وانظر إلىٰ ذلك الأسلوب الاستفزازيِّ من فرعون والذي عبَّر عنه القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الإسراء]، وهذه سُنَّة أهل الكُفر.

قال الله تعالىٰ: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ لماذا ؟ ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل].وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم:١٣].

ويمتاز الحقُّ بحبهِ وميلهِ إلىٰ إقامةِ الحُجَّة، والحرص علىٰ هدايةِ الباطلِ واستقامته، وصلاح أحواله، والعفو والصفح، فإن أبىٰ فلا مَفَرَّ من المواجهة والإعداد؛ قال الله تعالىٰ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران].

والحقُّ دائمًا معه الحقُّ جَلَّوَعَلَا يُؤازره وينصره ويؤيِّده بمدده؛ قال الله تعالىٰ لموسىٰ وأخيه: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه]، وقال النبيُّ ﷺ لصاحبه الصِّدِّيق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

والله عَزَّوَجَلَّ جعل الباطل كزبد البحر يذهب جفاءًا، وأمَّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

• وهنا تبرز سُنَّة التدافع، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء].

• وهنا تبرز سُنة هيبة الحقِّ مهما كان قليلًا أو ضعيفًا، ورَحِمَ الله مَنْ قال: «لو لم يبق مِنَ الحقِّ إلا حصوة لزحزحت أمامها جبال الباطل»؛ لذلك لا يعلو باطل ولا يسود أو ينتشر إلا في ظل غيبة وتكاسل من أهل الحقِّ.

• وهنا تبرز سُنَّة النصر الذي لا يكون من الله عَزَّوَجَلَّ إلا لرسله والذين آمنوا؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر] وقد يكون للكافر غلبة على أهل الحق، لكن لا يكون لهم النصر من الله عَزَّوَجَلَّ أبدًا.

۞۞۞

(٤٠) كم تركوا من جنات وعيون:

قال الله تعالى حاكيًا ما أصاب فرعون وجنده: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان].

فبماذا نفعهم الترف، وهم معرضون عن الله عَزَّوَجَلَّ؟

ولماذا ورَّث الله تعالىٰ تلك النعم لقوم آخرين؟

• لقد وصف الله تعالىٰ أهل النار أنهم في الدنيا (كانوا مترفين)، وحذَّر النبيُّ ﷺ أهل الإيمان من التنعُّم بقوله: { إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ؛ فَإِنَّ عِبَادَ اللهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ }(١)، وقال بعض السلف: «اِخْشَوْشِنُوا فإنَّ النِّعَمَ لا تَدومُ».

• التَّرف والنعيم صفة ملازمة غالبًا لأهل النَّار عندما كانوا في الدُّنيا؛ قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣﴾ [الأنبياء]، وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥﴾ [غافر]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥﴾ [الواقعة]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾ [الزخرف].

ولما رأىٰ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي ﷺ ينام علىٰ الحصير وقد أثر في جنبه قال له: كسرىٰ وقيصر ينامون علىٰ الديباج والحرير، وأنت رسول الله وأكرم الخلق علىٰ الله تعالىٰ تنام علىٰ الحصير! فقال له ﷺ: { أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ }؟!(٢).

---

(١) أخرجه أحمد، ح (٢٢١٠٥)، وأخرجه علي بن الهيثمي في «غاية المقصد في زوائد المسند»، ك: الزهد، ب: في التنعيم.

(٢) انظر: مشكاة المصابيح؛ ك: الرقاق، ح (٥٢٤٠).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ لهم يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ۝٢٠﴾ [الأحقاف].

حتى أعمال البرِّ والخير والأعمال الخيريَّة التي يقوم بها الكافر في الدُّنيا يوفيه الله إيَّاها في الدنيا مالًا، وصحَّة، وجاهًا، وشهواتٍ، وملذَّاتٍ حتى لا يكون له في الآخرة إِلَّا النار؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان].

❁❁❁

(٤١) الضعيف عندما يعتزُّ بالله يَقوى:

سُنَّة من سُنن الله تعالى، وعِبرة من العِبر والدروس الهامة، وحكمة يجب ألَّا ننساها: «أن الضعيف عندما يعتز بالله يقوى، والمكروب عندما يلجأ إلى الله تعالى يفرح وتُفرج كُربته، والمغرور عندما يعتز بجاهه يَذِلُّ أو ماله يَقِلُّ أو عقله يَختلُّ، ومن اعتزَّ بالله عَزَّوَجَلَّ: لا ذَلَّ ولا قَلَّ ولا اختلَّ».

• انظر إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين قال لأتباعه، ناصحًا وموضحًا لهم الطريق الصحيح للاستعانة: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف:١٢٨].

• وانظر إلى آثار العزَّة بالله والاستعانة به التي غيَّرت الموازين، وقلبت النواميس، فصار قوم موسى بعد ذِلَّة واستضعاف وخوف؛ أعزَّةً وارثين أقوياء مكَّن الله تعالى لهم في الأرض، وتحقَّق التوحيد، وانتشر العدل، وتحقق الرخاء، كل

ذلك ثمرة من ثمرات العزة بالله تعالى، والاستعانة به.

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص].

• وتأمَّل جمال هذه الاستعانة، وحقيقتها في قول نبيِّ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما قال فرعون لحاشيته: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر]، فكان ردُّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر].

ولذا كان أمره لأتباعه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ [الأعراف:١٢٨].

• وهكذا كان دعاؤه ﷺ كل ليلة إذا أوى إلى فراشه: {اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَا وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ}(١).

وكانت تعاليمه ﷺ التربوية للصحابة وأبنائهم من مثل: {يَا غُلَامُ، ... إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ...} الحديث(٢).

❁❁❁

---

(١) أخرجه البخاري، ك: الدعوات، ب: ما يقال إذا نام، ح (٦٣١٣)، ومسلم، ك: العلم، ب: ما يقول عند النوم...، ح (٢٧١٠).
(٢) سبق تخريجه.

(٤٢) سُنَّة المباغتة:

إنَّ الله تعالى يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته؛ قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون].

وهذه السُّنَّة تابعة لسُنَّة الاستدراج؛ قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۝٨٤﴾ [مريم].

فإذا رأيت العبد قائمًا على معصية الله تعالى، والله يمدُّه بالنعم فاعلم أنه منه استدراج، ولهذا وقع فرعون تحت وطأة سُنَّة الاستدراج، وهو في غفلة وغباوة وجهل بعواقب الأمور، وبسُنَّة الله تعالى الإلهية في الكون، فلحقته سُنَّة المباغتة، فأخذه الله تعالى في دقائق معدودة، ولم يجد له من دون الله وليًّا ولا نصيرًا، ولا مساعدًا ولا منقذًا ولا معينًا.

❁ ❁ ❁

(٤٣) العبرة بالخواتيم والعاقبة للمتقين:

• إن كثيرًا من الناس يجهلون هذه السُّنة الإلهية العظيمة؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ [القصص].

إنها من أعظم السُّنن الإلهية، فليست العبرة بالأحداث الجارية اليوم، ولا بطول الفترة، وليست العبرة بأول جولة في حلبة الصراع، إنها: النهاية لمن؟ والنجاح لمن؟ والتوفيق لمن؟

في دنيا الناس اليوم؛ أُناس عاشوا سنوات عمرهم بين القهر والتعذيب والسجن، ثم صاروا رؤساء دول، ولنا في قصة يوسف الصِّدِّيق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ العبرة والعظة؛ إذ عانى الأمرَّين في البئر، وفي بيت العزيز، ثم لبث في السجن بضع سنين، ثم خرج أمينًا على خزائن الأرض، بينما إخوته الذين كانوا يملكون الحرية والحركة جاءوا إليه صاغرين فقراء أذلاء، وتأمل وتدبر قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص].

ونعود لنتدبَّر ما في الآيات التالية من دروس وعبر ومعانٍ وأحكام، وانظر إلى إرادة الله تعالى فيها: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص].

لم يكن في خيال أحد من الناس أن المستضعفين المستذلين من قوم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أن يكونوا يومًا ما سادة وأئمة، ويرثوا الأرض والمُلك بعد غرق فرعون وجنوده في اليمِّ.

• قال الرجل المؤمن من آل لفرعون لقومه: ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر:٢٩].

إنها سُنَّة الله تعالى التي يجهلها أو يغفل عنها الظالمون والمتكبِّرون في الأرض، وسبحان الله! فإن هذه السُّنة تتكرَّر في كل عصر، وعلى فترات من الزمن، وفي

بقاع عدة من الأرض، ولكن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمي وأضل سبيلًا، ومن كان على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله تعالى؟!

• وكان الذِّكر والثناء الحسن حتى بعد نهاية الصراع من نصيب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وللحقّ الذي معه، بينما كان الويل والثبور، واللَّعنة على فرعون وجنده إلى قيام الساعة، وسُنَّة الله باقية إلى يوم الدين (والعاقبة للمتقين).

۞۞۞

(٤٤) أصحاب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأصحاب محمد ﷺ:

يذكِّرني قول أصحاب موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء]. - حيث البحر أمامهم وفرعون خلفهم - بمقولة طارق بن زياد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمَّا أرسله موسى بن نصير سنة ٩٢هـ لفتح الأندلس، فاجتاز البوغاز الذي سُمِّي باسمه فيما بعد «بوغاز طارق» إلى الجزيرة الخضراء في الشاطئ الأسباني، هنالك خَطب في جنوده عندما علم أن حاكم البلاد سيداهمه هو والجيش فقال:

« أيها الناس، أين المَفَرُّ؟ البحرُ من ورائكم، والعدوُّ أمامَكم وليس لكم واللهِّ إلا الصدقُ والصَبْرُ. واعلموا أنكم في هذه الجزيرةِ أَضْيَعُ من الأيتام في مَأْدُبَةِ اللِّئام، وقد اسْتَقْبَلَكم عدوّكم بِجَيْشِهِ وأَسْلِحَتِهِ، وأَقْواتُه موفورةٌ ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفُكم ولا أقواتَ إلا ما تَسْتَخْلِصُونَه من أيدِي عدوِّكم، وإِن امْتَدَّتْ بكم الأيامُ على افتقارِكم ولم تُنْجِزوا لكم أمراً ذهبتْ رِيحُكم، وتَعَوّضَتِ القلوبُ من رُعْبِها منكم الجَرَاءَةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خُذْلانَ هذه العاقبة من أمركم بِمُنَاجَزَةِ هذا الطاغيةِ. فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن

سمحتم بأنفسكم للموت، وإني لم أحذِّركم أمرًا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسي.

واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقِّ قليلًا استمتعتم بالأَرْفَهِ الألذِّ طويلًا، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظُّكم فيه بأوفرَ من حظِّي...»(١).

وكان لهذه الخطبة الأثر العظيم في نفوس الجنود الذين اكتسحوا عدوَّهم وأرغموه على الفرار، وتمكنوا من السير وفتح سائر البلاد، واستقبلهم الناس بالرغبة والارتياح والرِّضا والاطمئنان؛ لأنهم خلَّصوهم من الظلم الذي كانوا يقاسونه من الحُكام.

❁❁❁

(٤٥) (اذهب أنت وربك فقاتلا):

قالها أتباع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الذين نجوا معه من اليم، أمرهم الله تعالى بفتح بيت المقدس وإخراج الجبارين منه، ليرى منهم مدى شكر نعمته عليهم بالنجاة من فرعون وجنوده، فقالوا لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

والأمم المستعبدة لا تستطيع أن ترفع رأسها لتقاتل وتجاهد، لذلك لما كتب الله تعالى التيه على هذا الجيل، أربعين سنة يتيهون في الأرض (في صحراء سيناء) مات هذا الجيل المسمَّى (جيل التيه)، وأرسل الله «يوشع بن نون» نبيًّا إلى أبناء هذا الجيل، الذين تربوا في الصحراء على العزة والشهامة والرجولة، والإيمان، فخرجوا مع نبي

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني (١/ ٢٤١).

الله تعالى «يوشع بن نون» وفتح الله تعالى بهم بيت المقدس(١).

أما أصحاب محمد ﷺ لَمَّا أراد أن يستشير الأنصار في الخروج لغزوة بَدْرٍ الكبرى فقال المِقْدَادُ لِرَسُولِ الله ﷺ: « يَا رَسُولَ الله، إِنَّا لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا، إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ »(٢).

❁❁❁

(٤٦) فقه الأسباب والتوكُّل على الله تعالى:

قال الله تعالى على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آمِرًا بني إسرائيل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة]، هذا بعد أن أمرهم بدخول الأرض المقدسة؛ فانظر كيف جعل التوكل على الله شرط الإيمان؟.

وقال الله تعالى لنبيِّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [الشعراء: ٦٢]، لو أنه جمع عصي أهل بلد، وضرب بها البحر، فهل تُحدِثُ طريقًا كالطريق بين جبلين في نفس اللحظة؟! الجواب: قطعًا لا.

إذن: فما فائدة أن يضرب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ **البحر بعصاه؟!**

• إن الله عَزَّ وَجَلَّ يُعلِّمنا سُنَّة الأخذ بالأسباب، وأنه لا يُضيع أجر من أحسن

---

(١) انظر الدروس والعبر من هذه القصة في كتابنا «لا تؤملوا».

(٢) أخرجه البخاري، ك: تفسير القرآن، ب: قَوْلِهِ: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ}، ح (٤٦٠٩)، دون قوله (ولكن اذهب ...)، وأخرجه أحمد، ح (١٨٨٢٧)، واللفظ له.

عملًا. إنها من السُنَنِ التي تقدَّم بسببها غيرنا، وأهملها أهل الإسلام، واستبدلناها بالأماني الكاذبة، والأحلام والأوهام والدَّعة والتكاسل.

• فالنجاح في الدراسة سنته الإعداد الجيد من الحضور والفهم والمواظبة والمذاكرة، ثم يكون بعد ذلك الدعاء والتوفيق من الله تعالى.

• وكذا النصر على الأعداء له سُنَّة الإعداد الجيد، والتدريب المستمر، والتنظيم والأخذ بأسباب القوّة، ثم يكون الدُّعاء والنَّصر؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤].

وهذه سُنَّة إلهية يبتلي الله عَزَّوَجَلَّ أهل الحقّ فيها بأهل الباطل؛ ليتخذ منهم شهداء، وليربي منهم الرجال، وليعوِّد الأمَّة على التضحية والبذل، وألَّا يقل شأنهم عن أهل الباطل الذين يُنفقون أموالهم وأرواحهم في سبيله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾ [النساء].

• والتقُّدم العلمي له سُنَّة الإنفاق عليه، وحُسن الرعاية والعناية بالعلماء منذ الصغر، وتوفير البيئة المناسبة له، وترجمة ما عند الآخرين، ثم التكملة عليه، ثم يكون بعد ذلك الاختراع والتقدُّم والدُّعاء والتوفيق.

• ولقد أرشدنا القرآن الكريم، والسُّنة النبويَّة المطهّرة إلى هذه السُّنَّة الإلهيَّة الهامَّة في أكثر من موضع؛ ففي قصة ذي القرنين قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ [الكهف].

فقد هيَّأ الله تعالىٰ له الأسباب فاتَّبعها وأحسن العمل بها، فوفَّقه الله تعالىٰ لحل مشاكل الأرض كلها من مشرقها إلىٰ مغربها.

• وفي قصة الصِّدِّيقة مريم بنت عِمْران (علىٰ ابنها السلام) قال الله لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم].

فإن قيامها بهذا العمل لا يؤثر في الإنجاز إلا أنه يعوِّد علىٰ الأسباب والحركة والعمل وبذل الجهد ولو كان يسيرًا، ثم تكون النتائج ولو كانت عظيمة.

• وفي قصة هاجر زوج خليل الرحمن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأم ولده إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وسعيها سبعة أشواط تهرول حينًا وتمشي أخرىٰ من الإعياء والتعب، ثم بعدها كان نبع ماء زمزم.

• وفي سيرة خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ تتحقق هذه السُّنَّة في أسمىٰ معانيها وتطبيقاتها في هجرته، وغزواته، وسياسته، وحكمه.

ومن تأمل موقف النبي ﷺ مع المعذَّبين في أول الدعوة، يقول له خَبَّابُ بْنُ الأَرَتِّ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: { **قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ** }(١).

وذلك لعلم النبيِّ ﷺ أن الدعاء لهم لم تتم أسبابه بعد، فلما ربَّىٰ الله عَزَّوَجَلَّ

---

(١) أخرجه البخاري؛ ك: الإكراه، ب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، ح (٦٩٤٣).

الرجال لنبيِّه وتمت بيعتا العقبة، وتمت الهجرة إلى المدينة دعا النبي ﷺ وهو في عريشه في غزوة بدر داخل ساحة المعارك: { **اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ** }(١).

إذن فالداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر.

• ولقد أحسن النبيُّ ﷺ اختيار الجنود، وأشار عليهم واجتمع بهم، وأعدَّ العُدَّة، واطمأن على الرجال والسلاح والطريق، ثم اجتهد في الدعاء قبل اللقاء، حتى أشفق عليه الصحابة، وَقَالَ له الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ.

فكان الدعاء بعد العمل والخروج والإعداد، فوقع في محله ووافق سُنته، وكان النصر والتأييد والتوفيق.

• لذلك كان دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد فشل القول اللَّين، والموعظة الحسنة، وإقامة الحجَّة أتى دور الدعاء: ﴿**رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٨٨ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨٩**﴾ [يونس].

• والله عَزَّوَجَلَّ من عدله لا يساوي بين الكسالى وأصحاب الأماني والمتقاعسين والمتواكلين، وبين أصحاب الجدّ والعزيمة والعمل والهمَّة العالية؛ لذلك كان

---

(١) أخرجه مسلم؛ ك: الجهاد والسير، ب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، ح (١٧٦٣).

طريق الجنَّة محفوفًا بالجدِّ والعزيمة والرجولة والعبادة والجهاد والذكر والسهر وأعمال الخير والبرِّ والإنفاق.. وكان طريق النار محفوفًا بالشهوات والكسل والنوم والدّعة والراحة والسكون، أو التعب والكدّ من أجل الباطل والشَّهوات.

فَرْقٌ واضح كبير بين التوكُّل على الله تعالى بعد الأخذ بالأسباب، وبين التواكل وادِّعاء عدم قبول الدعاء.

قال بعض السّلف: « النعيم لا يُدرَك بالنعيم، ومن لزم الراحة فاتته الراحة الأبديَّة والنعيم، ومن خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل ».

• قد تزامن زمن كتابة هذا الكتاب مع غزو العدو الصهيوني على مدينة غزة الفلسطينية، والتي أحدثت ثورة نفسية عارمة في نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، واجتهد المصلون في الدعاء (وهذا من فقه النوازل) في الصلوات الخمس، ولا ريب في دور سلاح الدعاء وأثره العجيب، ولكن يكون دوره أوسع، وأثره أنفع إذا كان بعد إعداد القوة وتهيئة أسباب النصر، وتحقيق المؤازرة لإخواننا بالمال والسلاح والرجال، واستخدام شتى وسائل النصر من الدول الإسلامية بقطع العلاقات التجارية وغيرها، وأن نُهيئ أولادنا وإعلامنا في سبيل نُصرة هذه القضية، فلقد هيأ الله تعالى لنا كل أسباب النصر، ولكننا أهملناها وتركناها وهجرناها، ولم نعد نجيد إِلَّا الدعاء، فأين الإعداد بِمَا لدينا من إِمكانيات وتسخيرها في نصرة قضايا المسلمين، ولا حول ولا قوة إِلَّا بالله العلي العظيم.

❁❁❁

(٤٧) المحرومون من الهداية:

• من أمثال فرعون وقارون؛ ممن لا يستجيب إلى داعي الله عَزَّوَجَلَّ، والذين أوتوا العلم من الله ورسوله. قالوا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ [الأعراف: ١٣٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)﴾ [يونس].

ومثله قول سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ملكة سبأ: ﴿أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١)﴾ [النمل]. وقول مُشركي العرب: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال].

ذاك صنف من البشر خلقه الله تعالى من بعث النار، قلوبهم تملؤها الصدأ، وعقولهم عن الحق معرضة، ونفوسهم خاوية من الهدى والتقى والعفاف والصلاح، عقيدتهم كعقيدة الملاحدة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨)﴾ [غافر]، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤)﴾ [غافر]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)﴾ [البقرة]. ونحو ذلك من الآيات.

❁❁❁

(٤٨) كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله:

• خرج موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع عدد قليل من بني إسرائيل الذين آمنوا معه على خوف من فرعون وملئه أن يفتنهم، فنصرهم الله تعالى على الكثرة والحشد الكبير، والجموع الغفيرة من جنود فرعون، ومَن استعان بهم من المدائن.

• ونصر الله تعالى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وقتل جالوتَ؛ وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة].

• ونصر الله تعالى نبيَّه الخاتم ورسوله محمدًا ﷺ في غزوة بدر الكبرى وهم قِلَّة قليلة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران].

• **إنها سُنَّة الله تعالى تتحقق في كل زمان ومكان، في كل عصر ومصر بشروطها؛ من** [اليقين في ملاقاة الله تعالى، وتحقيقه على أرض الواقع، والصبر الذي تتحقق معه مَعيَّة الله عَزَّوَجَلَّ والثقة فيه، وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والصِّلة الدائمة لله عَزَّوَجَلَّ بالشكر المصاحب للنصر، وحسن الإعداد والاستعداد].

❁❁❁

(٤٩) الحجَّة الرسالية:

• إيمان فرعون عند موته دليلٌ على إقامة حُجَّة الله تعالى الرساليَّة على خلقه، وأنه سبحانه لا يعذِّب أحدًا لم تبلغه رسالة رسله الكرام؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص].

• وإقامة الحُجَّة من فقه الدعوة إلى الله تعالى، ومن أهم الضوابط التي انحرف فيها الخوارج، ومن الضوابط للأحكام: للمرتد، ولمن أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، ولتارك الصلاة، والجاهل لأحكام دينه وخاصة الحلال والحرام.

ولقد تعلَّمنا من بعض أصحاب الفضل علينا من العلماء: أن الله تعالى قد يعاقب الجاهل على جهله في العلوم المفروضة عليه (فرض عين) وهي ثلاثة: «عِلْم التوحيد، وعِلْم الحلال والحرام، وعِلْم الفقه المتعلق بالفرائض» أكثر من عقابه على الوقوع في شيء حرام وهو يجهل تحريمه وحرمته.

• وإقامة الحجَّة الرساليَّة على العباد من عدل الله تعالى ورحمته بالخلق، ويُسخِّر الله تعالى لهذه المهمَّة الكبيرة جنودًا لا يُحصيها ولا يعلمها غيره سبحانه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء].

• ويبقى جانب كبير منها يقع عاتقه على الحُكَّام والأمراء والدُّعاة والعلماء خاصَّة، وعلى المسلمين عامَّة لأنهم خاتمو الأمم، وحملة مشاعل الهداية وأنوار الرسالة إلى الناس كافة بعد النَّبي الخاتم محمد ﷺ.

۞۞۞

(٥٠) (حتى يغيِّروا ما بأنفسهم):

• إذا تحوَّل حال الإنسان من المعاصي إلى الطاعات حوَّل الله تعالى حاله مما يكره إلى ما يُحب.

• لم يَسْعَ فرعون إلى التغيير بسبب ما طمس الله على بصيرته، وبسبب غباوته

وعناده وكبره، فحوَّل الله تعالىٰ حاله مما يُحب إلىٰ مما يكره. قال تعالىٰ: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص].

لكن أتباع موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانوا سريعًا ما ينتبهون إلىٰ أخطائهم فيعاهدون موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ التغيير، ويحاولون ذلك، وهذا شاهد منهم عندما عبدوا العجل (عجل السامري)، وأمرهم الله تعالىٰ بالتوبة، بقتل أنفسهم - فقتل بعضهم بعضًا، وقُتل منهم الآلاف، وكان الرجل يقتل أرحامه وهو لا يرىٰ، حتىٰ نزلت عليهم توبة الله، وأمرهم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالكفِّ عن قتل أنفسهم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾ [البقرة].

❀❀❀

(٥١) (وما يعلم جنود ربك إلا هو):

• قال الله تعالىٰ لأم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص].

وهذه الآية بها من البلاغة والفصاحة ما يعجز عنه البُلغاء والخُطباء والشعراء والأدباء؛ حيث اشتملت علىٰ أمْرَيْنِ ونَهْيَيْنِ وبِشارَتَيْنِ:

أما الأمران: (أرضعيه، وألقيه)، وأمَّا النهيان: (ولا تخافي، ولا تحزني)، وأمَّا البشارتان: (إنا رادُّوه إليك، وجاعلوه من المرسلين).

والشاهد: البحر (اليَمّ) الذي أُلقي فيه موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو رضيع، فحمله الماء بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ حتىٰ أوصله آمنًا إلىٰ الشاطئ عند منزل فرعون.

هو نفس الماء الذي صار لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه طريقًا كالطود (الجبل) العظيم، وهو نفس الماء الذي أغرق الله تعالىٰ فيه فرعون وجُنده، وهو نفس الماء (الطوفان) الذي أغرق قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فانظر كيف كان البحر جندًا من جنود الله عَزَّوَجَلَّ: يحفظ موسىٰ وهو رضيع في الصندوق، وينجي الله تعالىٰ به موسىٰ ومن معه، ويهلك به فرعون ومن معه، وهو هو نفس البحر.

مما يدل علىٰ أن الكون بما فيه مُسَخَّر في خدمة الحق بقدرة الله تعالىٰ، وأنه جُند من جنود الله تعالىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

• كما كانت الريح من جنود الله تعالىٰ فأهلك الله بها قوم عاد، والأحزاب في غزوة الأحزاب.. وهي نفسها التي كانت عذابًا وهلاكًا للأحزاب، كانت رحمة ونُصرة لمحمد ﷺ. ذلك حتىٰ يكون المؤمن بالله تعالىٰ، الناصر لدينه، والمُعز لسُنَّه رسول الله ﷺ – مطمئنًا بأن الكون من حوله يُسَبِّح الله تعالىٰ معه، وهو معه حين يجتهد مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ في نُصرة هذا الدين العظيم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

❁❁❁

(٥٢) (الزمن جندٌ من جنود الله عَزَّوَجَلَّ):

• انظر إلىٰ الزمن منذ أن قال موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للمستضعفين من الذين آمنوا به: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف:١٢٨] حتىٰ غرق وجنده، مضىٰ الزمن،

وانقضت الأحداث، وما هي إلَّا سنوات فأغرق الله تعالىٰ عدوه ونجَّا وليَّه، وأعزَّ أهل الحق، وأذلَّ أهل الباطل.

وهو نفس الزمن منذ بعثة النبي ﷺ وهو يسمع صراخ «بلال وعمَّار وآل ياسر وصُهيب وخبَّاب وهم يقولون: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فيقول لهم: «**صبرًا؛ إن موعدكم الجنة**».. وما هي إلا سنوات مضت، ومضت معها صرخات المعذبين وأنينهم، وجاءت غزوة بدر الكبرىٰ، وقُتل فيها صناديد الكفر الذين كانوا يعذبون هؤلاء الصحابة الكرام.

• وهذه سُنَّة الله تعالىٰ، أن الزمن جندٌ من جنود الحقِّ جَلَّ وَعَلَا، يكسر الله تعالىٰ به شوكة الباطل، ويذلُّ به أهل الكفر، ويعزُّ به أهل الإيمان، لكن الله تعالىٰ وصف طبيعة النفس بالعجلة: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء].

۞ ۞ ۞

(٥٣) الاستهزاء والسخرية:

• قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء].

تمضي سُنَّة الله تعالىٰ في خلقه، ويظل فرعون - لَعَنَه الله - مستصغِرًا ومستهزئًا بموسىٰ ومن معه، ويصفهم بأنهم ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾، وأنهم مع ذلك له ﴿لَغَآئِظُونَ﴾.

ويمضي فرعون في السخرية والاستهزاء، وتظل هذه الرؤية وتلك السخرية

تُعمي بصره وبصيرته حتى يلحق بهم عند البحر ويغرق بسبب حماقته وغباوته.

وتأمَّل هذه الآيات وما فيها من عبر وعظات :

١- ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾: فيه دليل على الحيرة وضعف الإرادة والخوف من المواجهة مع الحقِّ أو التصادم معه.

٢- قوله: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾: ما داموا قلَّة فلماذا كل هذا الخوف، وحشد كل هذه الإمكانيات، ولماذا كل هذا الغيظ والحذر منهم ؟!.

٣- تأمَّل سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ في الكثرة والقلَّة؛ فأصحاب موسى قلَّة قليلة، وفرعون ومن والاه كثرة متكاثرة، ولكن شتَّان بين الفريقين، وتأثيرهم على الناس، فاستعراض القوَّة لا يتناسب مع حجم الحدث.

ذكَّرني ذلك بغلام الأخدود الذي بسببه آمن شعب بأكمله، وأملى إرادته وتعاليمه على الملك الظالم.

فلا يغترَّ الإنسان بغربة الحق وقلَّة السالكين فيه، ولا بانتفاش الباطل وكثرة الهالكين فيه؛ وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ].

٤- الدعاية الكاذبة، ودور الإعلام في تشويه صورة الحقّ لصدِّ الناس عن اتِّباعه، وقضية السُّخرية، والاستهزاء، والفخر، واللَّمز، والضحك من أهل الحق، مظاهر متوارثة من تاريخ الصراع بين الحق والباطل، وتدور معه حديث دار.

• فهذا نبي الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أول رسول من أولي العزم من الرسل يسخر منه قومه، فيبادلهم بقوله: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٨﴾ [هود]، هم يسخرون منه لاتِّباعه الوحي، ولرؤيته للمستقبل، ولعلوِّ همّته في دعوتهم للخير، والعمل ليل نهار في السفينة التي تنقذهم من الغرق، ولقلَّة أتباعه، يسخرون من جهده وجهاده وبنائه للسفينة في الصحراء، وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَسْخَر منهم لجهلهم وكفرهم وعنادهم، ولسوء مصيرهم وسوء خاتمتهم.

• وسَخِر مشركو قريش من خاتم الأنبياء والرسل، وسيد ولد آدم محمد ﷺ، وقالوا له: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص:٥٧]، وقالوا عنه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ١٤﴾ [الدخان]، وقالوا: (ساحر)، و (مجنون)... إلى غير ذلك من أنواع السخرية والاستهزاء.

وتلك بشرى للمؤمن - سخرية أهل الباطل بسبب دينه وإيمانه وتمسكه به-؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ شهد له بالإيمان، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾ [المطففين].

وبشَّره بالجنَّةِ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٣٦﴾ [المطففين].

وبشَّره بالتّقوى: قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة:٢١٢].

وبشَّره بالفوز برحمته ورضوانه وجنَّته، وأنه سبحانه يغضَب من أجلهم،

ويعاقب هؤلاء المجرمين بأشد أنواع العقوبة بلا رحمة ولا شفقة؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝١١١ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ۝١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١٤ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ۝١١٦﴾ [المؤمنون].

۞ ۞ ۞

(٥٤) ميراث الأرض:

• قال الله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان].

يستحيل أن يكون ميراث الأرض والتمكين لهؤلاء المترفين، بل هم سبب هلاك أقوامهم؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ۝١٦﴾ [الإسراء]. قيل: أمرنا مترفيها بالطاعة فخالفوا ذلك وفسقوا فيها، وفي قراءة (أمَّرنا) مِنَ الإمارة؛ أي صاروا أُمراء ومسئولين ففسقوا فيها.

و(أمرنا مترفيها) بأمر الله عَزَّوَجَلَّ القدري، ففسقوا فيها وخالفوا أمره الشرعي.

لذلك فميراث الأرض لعباد الله الصالحين؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا

﴿فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم].

ولقد بشَّر النَّبيُّ ﷺ سُراقة بنَ مالك - وهو صُعلوك فقير - بسواري كسرىٰ ابن هرمز.

• فهذه سُنَّة إلهية لا تتغير ولا تتبدل؛ فقد ورث موسىٰ وأتباعه الأرض من بعد فرعون وجنده، تصديقًا لوعد الله تعالىٰ لهم علىٰ لسان نبيه موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهم في حالة من الضعف والهوان والتعذيب؛ قالوا لموسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾، فقال لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦﴾ [القصص]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور].

ولقد تحقَّقت هذه السُّنَّة، فمكَّن الله عَزَّوَجَلَّ لأتباع موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن

عبروا البحر وغرق فرعون وجنده، ومكَّن لأصحاب محمد ﷺ من بعد تعذيب وهجرة وفقر وضعف؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

حتىٰ الجنَّة جعلها الله عَزَّوَجَلَّ ميراثًا لعباده المتّقين؛ قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذكره صفات المؤمنين أنهم هم «الوارثون»: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

من هذه الآيات نعلم أن التمكين لأهل الإيمان مشروط بالصلاح المقرون بصحة التصور، والإصلاح، والتخلص من صفات المنافقين. نسأل الله أن يجعلنا من أهل الإيمان.

❁ ❁ ❁

(٥٥) الغنَى السافل:

• الاعتماد علىٰ الأموال، والحرص عليها يصيب الإنسان بأمرين:

١- الكَد والتعب في تحصيله.

٢- الحُزن والأسىٰ عند فراقه ونقصانه.

وليس معنى ذلك أن تظل الأمَّة في مجموعها زاهدة لا تسعى للحصول على المتع والملذات الحلال؛ لكنها الضوابط من الانحراف بالفكر والاقتصاد والتلاعب بالنعم بدلًا من شكرها والمحافظة عليها.

• وأمامنا الفكر الرأسمالي الذي يسيطر على بعض عقول المسلمين اليوم، حتى أصبح كثير منهم ذليلًا لطلب المال، خاضعًا لبروتوكول الحصول عليه، والبعض الآخر منهم عَبَدَة للمال، أسير همّه وغمّه، وما أروع هذه التسمية «الغِنَى السافل» الذي يحصل عليه الإنسان بأي طريق وبجهد شاقٍّ، وعمل ليل نهار، وإذا فقده فقده بحسرة وغمٍّ ونكد.

• والصواب والعدل والإنصاف في المسألة: أن المال في الإسلام وسيلة وليس غاية، وأن الكفاف والغِنَى بالنفس أولى من الطمع والكنز، وأن مهمة هذه الأمَّة ليس الحصول على المال للترف والنعيم، إنما الحصول عليه للعزَّة والتمكين ونشر الإسلام في ربوع الأرض، والله جَلَّ وَعَلَا هو الذي جعلنا مستخلفين فيه، أمناء عليه، وحدَّد لنا سُبُل الحصول عليه، وحرَّم علينا الجشع والطمع والكنز والغِشَّ والاحتكار والرِّبا، ولم يخلق هذه الأمَّة لتعمل ليل نهار من أجل الحصول عليه، إنما نظَّم لها أوقاتها بين: «السعي على الرزق، وأداء العبادات، وحقوق العباد، وصلة الأرحام، ومهام الدعوة والجهاد، وطلب العلم»، على ألَّا يكون عائقًا أو سببًا في مذلَّة للمؤمن. فلا ينبغي للمؤمن أن يُذِلّ نفسه بسببه.

• ولعل قصة فرعون مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقصة قارون - وهو قريب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ - أصدق برهان ودليل على أنَّ المركز والمال والسلطان لا تنفع صاحبها في الدنيا ولا عند الله تبارك وتعالى في الآخرة بدون ضابط الإيمان والتقوى لها.

فالمال والجاه مع التقيِّ نعيم وسعادة، ومع الشقيِّ نَكَد وزَهَقَان للنفس، وعذاب في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة]، فما نفعَ فرعونَ سلطانُه ولا جاهُه، وما خدم قارونَ مالُه وكنوزُه. قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص].

والغِنَى الحقيقي: هو الغِنَى بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو لا يأتي إلا بعد الشعور بالفقر الذاتي إليه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر].

وقال ﷺ: { **لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ** }(١).

ومن الغِنَى القناعة - وكما قيل: القناعة كَنزٌ لا يَفنى.

والقناعة عنوان من عناوين الفلاح، قال ﷺ: { **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ** }(٢).

فكان غِنَى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأتباعه مع فقرهم وقلَّة ذات اليد غنًى عالٍ، لأنه غِنًى بالله عَزَّوَجَلَّ، فأغناهم الله على وجه الحقيقة، وكان غِنَى فرعون غِنًى سافل فخسف الله تعالى به البحر، كما خسف بقارون الأرض.

أغرق الله فرعون، فما نفعه سلطانه ولا وزراؤه وخدَّامه، وخسف بقارون فما نفعته أمواله التي سخَّرها في خدمة فرعون وطغيانه، قال تعالى في حال أهل النار:

---

(١) أخرجه البخاري، ك: الرقاق. ب: الغنى غنى النفس. ح (٦٤٤٦)، ومسلم؛ ك: الزكاة، ب: ليس الغنى عن كثرة العرض، ح (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم، ك: الزكاة، بَابٌ فِي الْكَفَافِ وَالْقَنَاعَةِ ، ح (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو.

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩ ﴾ [الحاقة].

❁❁❁

(٥٦) الأتباع والمتبوعون (الولاء والبراء):

• تسمع دائمًا من بعض الجهلة عندما يعمل عملًا يعلم أنه ظالم أو معتدي يقول لك: أنا عبد المأمور أُنفذ الأوامر، فهل ذلك القول يحميه من الحساب والعقاب؟ هل هو عبد المأمور أم عبد الله؟

ما الذي استفاده جنود فرعون بولائهم له والسمع والطّاعة؟ ماذا كانت النتيجة؟ الاشتراك معه في الغَرَق والهلاك، وفي العذاب الأخروي، قال تعالىٰ: ﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ ﴾ [القصص]، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ ﴾ [غافر].

• ولقد حذَّرنا الله عَزَّوَجَلَّ من الركون إلى الذين ظلموا بقوله: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣ ﴾ [هود]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨ ﴾ [البقرة]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩ ﴾ [طه]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ ﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا

غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [القصص].

• فلينظر كل مسلم لمن يكون ولاؤه وحبه، وممن يجب أن يتبرأ ويكره، وليكن له في خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أُسوة حسنة؛ قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:٤].

• ولقد بيَّن لنا الله عَزَّوَجَلَّ أن حبَّ الكافرين وموالاتهم لا يجتمع مع الإيمان بالله تعالى؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة:٢٣].

• ووصف المنافقين الذين يوالون الكافرين خوفًا من أن يصيبهم منهم أذىٰ أو غضب، أو خوفًا علىٰ مصالحهم معهم بالردَّة؛ فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

• قضية واضحة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وطبقها أصحاب النبي ﷺ فأعزَّهم الله بها، وصاروا سادة في عزٍّ ومنعة، لا يخشون أحدًا إلَّا الله، وهي قضية غائبة عن

كثير من الناس اليوم، فاختلطت المفاهيم وساد النفاق، وكثرت أبواقه الدعائية، وحشر لهم جنود في كل مكان؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة].

ذكر بعض المفسرين أن النهي للمنافقين عن الفساد في الأرض في هذه الآيات بسبب تقاربهم مع اليهود وعقد مصالح معهم على حساب الإسلام والمسلمين؛ قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ۝٥٢﴾ [المائدة].

يعني لو غلب اليهودُ محمدًا ﷺ كان بيننا وبينهم مودَّة، وإن غلب المسلمون اليهود كنا معهم.

• ولقد أوضح الله تعالى هذه القضية غاية الوضوح، وفضح الله عَزَّوَجَلَّ نواياهم ووصف أعمالهم تارة بالردَّة، وتارة بالكفر، وتارة بالنِّفاق؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩﴾ [النساء].

• ولقد حذَّر الإسلامُ العلماءَ من الدخول على السلاطين حفاظًا وصيانة للعلم أن يُهان أو يُباع برضا السلطان. والعلماءُ والأمراءُ هما جناحا الأمَّة، إن صلحا وبيّنا واستقاما أصلح الله تعالى أحوال العباد والبلاد، وإن فسد أحدهما وتبعه الآخر، عمّ الفساد ولا صلاح؛ لأن الله تعالى لا يُصلِح عمل المفسدين، وما كان فساد قارون وبغيُه إلَّا بسبب حرصه على رضا فرعون والتقرُّب إليه، فغرق فرعون وجنده الموالون له، وخسف الله تعالى بقارون وبداره الأرض فما كان له

فئة ينصرونه أو يساعدونه، وما كان من المنتصرين.

• وتأمَّل معي هذا الموقف الذي يقصُّه الله عَزَّوَجَلَّ علينا في القرآن الكريم، يوم يقول الذين اتبعوا السادة والكبراء، وعملوا على إرضائهم وتنفيذ أوامرهم ورغباتهم، قالوا وهُم في النار (تخيَّل معي هذا المشهد الرهيب): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت].

❁❁❁

(٥٧) (فظلموا بها):

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾ [الأعراف].

• الظلم حرَّمه الله تعالى على نفسه بقوله في الحديث القدسي: { **يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ...**}(١).

والظلم هو منع الحق من الوصول إلى أهله.

قال ابن رجب الحنبلي عن الظلم : « وهو نوعان:

أحدهما : ظلمُ العبد لنفسِه، وأعظمه الشِّرْكُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان]. فإنَّ المشركَ جعل المخلوقَ في منزلةِ الخالق ، فعبده وتألَّهه، فوضع الأشياءَ في غيرِ موضعها، وأكثر ما ذُكِرَ في القرآن مِنْ وعيد الظالمين

---

(١) أخرجه مسلم، ك: البر والصلة والآداب، ب: تحريم الظلم، ح (٢٥٧٧).

إنَّما أُريد به المشركون، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾، ثمَّ يليه المعاصي علىٰ اختلاف أجناسها من كبائرَ وصغائرَ.

ومن صور ظلم العبد لنفسه: أن يحجبها عن مواطن الخير والفلاح كالصلاة (حي علىٰ الفلاح)، أو يوردها مواطن الهلكة والخسران بوقوعها في المحرَّمات وارتكابها المنهيات، فحق نفسه عليه أن يحيا بها حياة كريمة لا يفسد عليها، فطرة الله تعالىٰ التي فطرها عليه؛ وهي الإسلام .

والثاني: ظلمُ العبدِ لغيره، كأكل أموال الناس بالباطل، أو النيل من أعراضهم بغيبة أو نميمة، أو الاعتداء عليهم وعلىٰ ممتلكاتهم.

وقد قال النَّبيُّ ﷺ في خطبة حجة الوداع: { **إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا** }(١).

وظلم فرعون وملئه شمل هذين الصنفين:

فقد ظلموا أنفسهم بالشرك بالله تعالىٰ وبالاعتداء علىٰ آياته بعدم الإيمان بها، ومحاربة من جاء بها، وظلموا أنفسهم بأن أوردوها مواطن الهلكة في الدنيا والعذاب في الآخرة، وظلموا غيرهم باستضعاف الرجال، واستحياء النساء، وقتل الأولاد وسلب الأموال واضطهاد الصالحين.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [القصص].

---

(١) أخرجه البخاري، ك: الحج، ب: الْخُطْبَةِ أَيَّامَ مِنًى، ح (١٧٣٩)، ومسلم، ك: القسامة والمحاربين، ب: تَغْلِيظِ تَحْرِيمِ الدِّمَاءِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْأَمْوَالِ، ح (١٦٧٩).

(٥٨) (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين):

صاروا بهذا الظلم من المفسدين في الأرض؛ قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [القصص].

• **والإفساد في الأرض له صور متعددة منه:**

١- الاعتداء على الآمنين وترويعهم، وقطع الطريق عليهم لسلب أموالهم وممتلكاتهم، أو الاعتداء عليهم.

٢- الإفساد بمحاربة الله ورسوله، ومخالفة تعاليمهما، ومعاداتهما، والنيل من المؤمنين.

٣- الإفساد في الأرض بالربا وارتكاب الفواحش والمحرمات.

٤- الإفساد في الأرض بزعم التقارب بين الأديان، أو بموالاة الكفار؛ بزعم لو أن الكفار غلبوا على أهل الإيمان كانت لهم عندهم يد، وإذا أهل الإيمان انتصروا قالوا: ألم نكن معكم ونحن منكم، وهذا حال المنافقين، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾[المائدة:٥٤]،وقال تعالى:﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢].

وسُنة الله تعالى في إهلاك المفسدين إما أن يكون بالغرق كفرعون وجنده وقوم نوح، وإما أن يكون بالخسف كقارون، وإما أن يكون بالصيحة أو الريح، أو

حجارة مسوَّمة عند ربك كأقوام عاد وثمود، وإما أن يكون بتعذيبهم في الدنيا بأموالهم وأولادهم، وفي الآخرة بالدرك الأسفل من النار كالمنافقين، وإما أن يعذبهم بأيدي المؤمنين ككفار قريش، وغير ذلك بما يليق بهم.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

❁❁❁

(٥٩) ما هو سبب استكبار فرعون وجنوده في الأرض؟

لا شكَّ أن السبب وراء طغيان فرعون واستكباره هو وطواغيت الأرض هو الذي بيَّنه الله تعالى في كتابه العظيم، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص].

بيَّنت الآية سببين هما:

الأول: استكبار بغير الحقّ. كبرٌ واستعلاء يؤهِّلُهم لجهنم؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر]، وَعَلَامَ الكِبْرُ والنعم التي يتكبَّرون بسببها لن تدوم، ولن تكتمل، وصاحب العظمة والكبرياء وحده هو المستحق لهما بلا منازع، ومن شاركه فيهما قصمه الله تعالى ولا يبالي به، وذلك لأنه سبحانه الخالق صاحب صفات الكمال والتي لا يعتريها نقص أو زوال.

والثاني: ظنّوا أنهم إلى الله لا يرجعون؛ «دهرية» متكرِّرة في كل زمان ومكان؛ ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]، فالحياة إذن فرصة للاستمتاع والحرية

والفوضى، وبغير الحقّ، يعني بالباطل، والباطل يؤدي إلى الظلم، والظلم ظلمات يوم القيامة، والله سبحانه يُملي ويُمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته – ظلمٌ في حق ربه جَلَّ وَعَلَا، وظلمٌ لنفسه، وظلمٌ لغيره من الخلق.

وإذا رأيت العبد يتمادى في ظلمه والله تعالى يُنعم عليه، فاعلم أنه منه سبحانه استدراج؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم].

والله عَزَّوَجَلَّ حرَّم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرَّمًا، كما في الحديث القدسي: **{ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ...}**(١).

• والظلم ضد العدل والقسط، فالمحاباة والمجاملة في الحقوق والأحكام ظلم، والتفريط في إقامة العدل ظلم، وإسناد الأمر لغير أهله مجاملة لقرابة أو محسوبيَّة ظلم، وأكل أموال الناس بالباطل ظلم – حتى لو كان عن طريق فرض ضرائب، أو زيادة أسعار الخدمات أو فرض مكوس – وسلب حقوق الناس والتضييق عليهم ظلم. وكل ذلك وقع من فرعون وجنوده، وممن يسلكون مسلكهم.

والله عَزَّوَجَلَّ يُبغض الظلم، ومن أشد أنواعه الكذب على الله عَزَّوَجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام:١٥٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام].

وجعل الله عَزَّوَجَلَّ أول السبعة الذين يظلّهم في ظلّه يومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّه { إِمامٌ

---

(١) أخرجه مسلم، ك: البر والصلة والآداب، ب: تحريم الظلم، ح (٢٥٧٧).

عادل }(١).

ودولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة.

• **كذلك من صور الظلم**: التفريق بين الأولاد في العطيَّة، جاء الصحابي بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النَّبيِّ ﷺ ليُشهده على عطية لولده النعمان، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **{يَا بَشِيرُ أَلَكَ وَلَدٌ سِوَى هَذَا؟ }** قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: **{ أَكُلَّهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هَذَا؟ }** قَالَ: لَا، قَالَ: **{ فَلَا تُشْهِدْنِي إِذًا، فَإِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ }**(٢).

• والعدل بين الأزواج أساسه عدم الظلم بينهم، فإن الزوج إذا لم يظلم واحدة منهنَّ فقد أقام العدل الذي كلّفه الله تعالى به.

• وكلما تيقن العبد عودته إلى الله تعالى، وأنه سيقف بين يديه يحاسبه، ويزن أعماله، وينشر له ديوانه، ويُذَكِّرُهُ بنعمه ماذا عمل فيها، ويحاسبه على عمله هل كان لله تعالى أم لغيره، وعلى أي طريقة كان؟ ويسأله عن ماله من أين اكتسبه وفِيمَ أنفقه؟ ويسأله عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيما أفناه؟ والله لا يظلم الناس مثقال ذرَّة – كلما تذكر ذلك كفَّ عن الظلم بأنواعه.

وما طال وقوف الصالحين بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ في وقت السحر خائفين إلَّا

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان: البخاري، ح (٦٦٠)، ولفظه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: {سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ}، ومسلم، ح (١٠٣١).

(٢) أخرجه مسلم؛ ك: الهبات، ب: كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، ح (١٦٢٣)، وهو عند البخاري برقم (٢٦٥٠).

حسابًا لهذا اليوم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر].

• إن الذي يمنع العبد من الظلم، والغشِّ، وأكل الحرام، وقول الزور، وغير ذلك هو: خوفه من الله تعالىٰ عندما يرجع إليه، ويحاسبه علىٰ النقير والقطمير.

فالذي يضبط تصرُّفات العبد وحركاته وعمله وسلوكه هو شعوره بمعيَّة الله تعالىٰ، ودوام تذكُّر الآخرة، وخوفه من الحساب عند الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ، والوقوف بين يديه.

• ومن خصال أهل الجنة، ما مدحهم الله تعالىٰ به بأنهم في الدنيا جعلوا الجنَّة أمام أعينهم وكل ما يؤدي إليها، لا يبغون عنها حِوَلا؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

❁❁❁

(٦٠) طبيعة الاستبداد:

• كتب (عبد الرحمن الكواكبي) كتابه الرائع: «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»؛ مبيِّنًا بأسلوبه الأدبي البليغ، وسلاسة ألفاظه وعباراته حقيقة هذه البلوىٰ التي ما خلا زمان منها.

• وفرعون مدرسة الاستبداد الأولية، وعلىٰ نَمَطِها تخرَّج الآلاف من المُستبدِّين والطَّواغيت والطُّغاة.

ومن مبادئه الاستبدادية: تشويه الحقائق وتزييفها، وتسمية الأسماء بغير أسمائها.

قال فرعون للسحرة لما آمنوا: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه:٧١]؛ وهو يعلم علم اليقين أنه لا علاقة ولا قرابة ولا صلة بين موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والسَّحرة، وكما قال من قبل لقُوَّاده ووزرائه: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر]؛ فهو يريد إبراز أي علَّة يقتنع بها هو، ويقتنع بها جلَّادوه، حتىٰ يكون ضميرهم في رضى عما يفعلون.

• يُذكِّرني ذلك بكتاب اسمه «التطرُّف المسيحي والإرهاب»، ألَّفه أحد المنصفين من الكُتَّاب وهو (الأستاذ طارق فوزي)، وقد جمع فيه النصوص المدونة في كُتب اليهود والنصارىٰ الحالية: التوراة، والإنجيل (العهد القديم والجديد)، والتي أصابها التغيير والتبديل والتحريف، تحُضُّهم علىٰ الإرهاب والتطرُّف، ثم ذهب لدار الكتب القومية لعمل رقم إيداع وفهرسة للكتاب - حسب النظام الرسمي -، فقابلته موظفةٌ تقول له: هل في النَّصرانية إرهاب؟! فقال لها بطلاقة: وهل يوجد في الإسلام إرهاب؟!، فتشويه الحقائق، وتسمية الأشياء بغير اسمها صنعة كُل مستبد وظالِم، تبعًا لقائدهم ومعلمهم الأول فرعون وهامان وقارون.

• وأهم ما يميِّز المستبدين:

١- سرعة تلفيق التُّهَم واتخاذ الحُكم سريعًا بعيدًا عن التحقُّق والتثبُّت.

عندما فرعون سمع قول السَّحرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف]، قال لهم في الحال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف]. مع أن السَّحرة جاءوا للتحدِّي أمام موسىٰ، يعني

بغضهم له وخوفهم منه قبل التحدِّي، وهذه سياسة فرعون أرساها لكل حاكم مُستبدٍّ، وتكرَّرت هذه الصورة في كل زمان ومكان.

٢- تصدر الأحكام دون دفاع أو إمهال، كأنها أحكام عُرفية ومحاكم عسكرية، فأصدر فرعون حُكمه في الحال: ﴿**فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾**﴾ [طه].

٣- عُنف وشِدَّة وتنكيل وبطش وإرهاب ليكونوا عِبرة لغيرهم، وهكذا شأن المستبدِّين دائمًا.

٤- ليس لديهم عزيز، فمنذ قليل كان السَّحرة على مائدة كرم فرعون، ووعدهم بالأجر والمناصب، وبينه وبينهم مصالح سابقة ولاحقة، وكان بإمكان فرعون استبدال القتل والصلب بالحبس، والإغراء، وبأي وسائل أخرى.

٥- ليس لديهم وقت كافٍ للشورى، ودراسة الأمر مع أهل الخبرة، وإن حدث إنما يكون لتحسين الصورة.

٦- غفلتهم عن السُّنن الربانية؛ ومنها: أن دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة، ومن قَتَلَ يُقتَل ولو بعد حين، وأنَّ الله ينصر الحق وإن طال الأمد، وأن الزَّبَد يذهب جُفاءً، وما ينفع الناس فيمكث في الأرض، وأنَّ الله يُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته.

٧- سَنُّ التشريعات وفق رؤية المستبدِّ الظالم، قال فرعون: ﴿**مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾**﴾ [غافر].

٨- تبديل الحقائق: فالمنكر معروف، والمعروف منكر، فسار القتل للأبرياء

سبيل الرشاد.

٩- تسمية الأشياء بغير مسمَّياتها، والعمل في الخفاء بما يحرمون العمل به في العلن؛ مثال: اتهام موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالسِّحر، وتبديل دين الفراعنة، ثم هو - أي فرعون - يستخدم السِّحر في مواجهته.

١٠- تسييس الدين، وتحديد مفاهيم الإيمان وفق رؤية المستبِدِّ وبطانته؛ قال فرعون: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف:١٢٣].

❁❁❁

(٦١) التحالفات:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾[الأعراف].

وأنا أقرأ هذه الآية قلت: سبحان الله! هل من قلة الإمكانيات أو ضعف الاستعدادات أو قوة الأعداء، يستدعي كل هذه التحالفات من أجل القضاء علىٰ القلة المؤمنة الهاربة، والتي ليس لديها سلاح أو عتاد؛ سوىٰ سلاح الإيمان والثبات علىٰ الحق، والاستعانة بالحق جَلَّ وَعَلَا، والثقة واليقين فيه، وإخلاص الدعاء له سبحانه، وخاصة أنهم في نظر فرعون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الشعراء] فما داموا (شرذمةً قليلين)، فلماذا كل هذا الغيظ منهم؟ ولماذا كل هذه التحالفات ضدهم؟ إنه الرعب والخوف والقلق والتردُّد والحيرة والتخبط والفشل الذي يلازم الظالمين في كل مكان وزمان.

تخيَّل أن القرآن قصَّ علينا هذا، ثم يتكرَّر بنفس الصورة في العصر الحاضر؛ فأمريكا بقوتها الواهية، وزعامتها الواهمة لا تستطيع القضاء علىٰ دولة أفغانستان المشتَّتة والمبعثرة إلا من خلال التحالفات، والمرور عبر الخونة المعجَبين بهم من

أبناء تلك البلاد.. وكذلك في أي حرب لها كما في العراق، وغيرها.. وإذا دَخَلَتْ وحدها خابت وخسرت كما حدث في فيتنام.

وانظر لحربها الأخيرة على تنظيم الدولة الإسلامية الذي يسمونه «داعش» والحرب الإعلامية والتحالفات الدولية والآلة العسكرية لمحاربة هؤلاء.

۞۞۞

(٦٢) غباوة المستبدِّين والكافرين، وعدم التوفيق:

شاهد فرعونُ وجندُه الآية والمعجزة في لحظة واحدة، وهم على مقربة من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والذين آمنوا معه، وعلى مرمى البصر.

شاهد فرعونُ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو يضرِب بعصاه البحر؛ وهذه العصا قد سبق لفرعون أن شاهدها وهي ثعبان ضخم؛ وعاين الحقَّ يوم الزينة بين سحر السحرة وعصا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، رآها وهي تلقف إفك هؤلاء السحرة ثم عادت عصًا مرة ثانية.

لقد طمس الله تعالى على قلبه وبصيرته، وظهرت عليه دلالات الغباوة والتخبط؛ وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال هامٌّ: **لماذا آمن السَّحَرة ولم يؤمن فرعون؟! ولماذا قال آمنتُ عند الغرق؟**

لقد شاهد هذه المعجزة الضخمة، وانبهر هو وجنوده بها، إنه العمى؛ عمى الكفر الذي أعمى بصائرهم، وشلَّ تفكيرهم، فبدلًا من أن يصدِّقوا بهذه المعجزة، ويعلموا أن إله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ معه، ولن يخذله، ولن يسلمه، فكانت لهم فرصة مواتية ليراجعوا أنفسهم، ويعيدوا حساباتهم؛ لكنهم لم يفعلوا، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًا﴾ [يونس: ٩٠].

إنها سُنَّة الله تعالى التي أكَّدتها تجارب البشرية مع رسلهم على مدى الزمان، لتؤكد الحقيقة الخالدة في قول ربِّ العزَّة جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وتتكرَّر تجربة فرعون مع مشركي قريش؛ يسألون الله عَزَّوَجَلَّ سؤالًا أغرب من الخيال، لا يصدِّقه عقل، ولا يقرُّه رأي سديد، أتدري ماذا يطلبون من الله تعالى؟! يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال].

إنه مسلسل الغباوة والعناد، يشترك فيه أهل الكفر قاطبة على مدى الزمان والمكان، والمفروض أن أصحاب العقول السليمة يقولون: اللَّهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فاهدنا، واشرح صدورنا له، وارزقنا الإيمان به؛ لكن كان طلبهم عجيبًا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. يتصرَّفون من واقع إمكانياتهم المادية، والقوة التي تحت أيديهم، ويفوتهم حسابات أخرى أهم وأجدى وأنفع في المواجهة، وجلب النصر، كانوا يظنون أن البقاء للأقوى، لكن سُنَّة الله تعالى تخبرنا أن البقاء للأتقَى دومًا؛ وصدق الله تعالى لما قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ

ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر].

۞۞۞

(٦٣) امرأة فرعون:

إنَّ إسلام امرأةِ فرعون ووزيرِه (الرجل المؤمن)، وتربية موسىٰ في بيته لدليل علىٰ نفاذ إرادة الله، رغم كيد الكائدين، كما تدل علىٰ مدىٰ انعدام البصيرة والرؤية لدىٰ فرعون، وعلىٰ عجزه وضعفه، فلم يستطع منع الإيمان بموسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الدخول إلىٰ قصره، وإلىٰ مضجع نومه، ومجلس كبرائه!.

وفي هذا دليل علىٰ أن الحق لا تستطيع أي قوة علىٰ ظهر الأرض القضاء عليه، لكنها صولات وجولات، وهذه سُنَّة الله؛ قال تعالىٰ: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء].

والسؤال: كيف دخل الإسلام قصر فرعون بهذه الصورة، وبهذه القوة ؟

والجواب: إنها إرادة الله تعالىٰ الذي يُظهر دينه ولو كره الكافرون، والهمة التي أعطاها الله تعالىٰ لأهل الإيمان، فهم مع ضعفهم وقلتهم واستضعافهم وبطش فرعون بهم، لم يستسلموا ولم يضعفوا ولم يقصِّروا في أداء واجبهم نحو ربهم ودينهم، فقاموا بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وسعوا في هداية الناس وهُمْ في أحلك الظروف حتىٰ ظفر بهم الحق وعلا وسما.

إنها مقاليد الأمور؛ فهو سبحانه له مقاليد السموات والأرض، وعلىٰ العاملين في حقل الدعوة ألَّا يملوا أو يتكاسلوا أو يتشاغلوا عن دعوتهم.

انظر إلىٰ يوسف الصِّدِّيق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يدخل السجن ظلمًا ومن أول وهلة يُعلن

دعوته، ويبسط هدايته على من حوله، ويعلن صراحة: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف].

❁❁❁

(٦٤) (وإني لأظنك يا فرعون مثبورًا):

وأنا أتخيل هذه المقابلة، وأتأمل ذلك الموقف بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون أستشعر بقوة حُجَّة موسى، وشجاعته وجرأته في المجابهة والمواجهة، وتملكه لزمام الحوار، وثباته على الحق، والأدلة الدامغة عليه.

كما أتعلم أن الباطل عندما لا تكون لديه حُجَّة أبو بُرهان أو دليل، سريعًا ما يسوق الاتهامات، وهذا حال كل مُفسِد في الأرض يعلل فساده وانحرافه بعلل واهية واتهامات باطلة لا ينخدع بها أهل الحق؛ فقال فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء].

❁❁❁

(٦٥) لماذا قَتَلَ فرعون الأولاد الذُّكور ؟!

فرعون كان حريصًا على قتل كل مولود ذكر من نسل بني إسرائيل؛ وذلك حتى يستمروا في عبوديتهم له، وحتى ينقطع نسلهم، فلا تقوى شوكتهم وعزوتهم بأبنائهم، واستغل من حول فرعون هذه الفرصة للسلب والنهب والقهر كأنها رخصة لهم من فرعون.

وهذا يُذكِّرني بوسائل منع الحمل الواردة إلى ديار المسلمين من الغرب والتي كانوا يستخدمونها في بلادهم على الفئران كحقل تجارب، ثم أصبحوا يصدِّرونها لنا، ولقد أثبت الأطباء العدول الثقات خطر هذه الحبوب وأثرها الضارَّ على

صحَّة الإنجاب عامة، وخطرها على صحة المرأة خاصة، ودورها في قطع نسل المسلمين وضعف شوكتهم وقلَّة عددهم - متأسِّين بذلك بقائدهم فرعون -، ولكن سُنَّة الله قائمة في هؤلاء الذين يحاربون الله عَزَّوَجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر].

❁❁❁

(٦٦) التوبة:

• لماذا لم يقبل الله تعالى توبة فرعون عند غرقه، وهو سبحانه لم يغلق باب توبته أمام أحد؟. لقد دعا المشركين إلى التوبة بقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة:٧٤] ورغَّب الكافرين فيها بقوله: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال في المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

وقال في الظالمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج].

وقال في أصحاب الكبائر والصغائر: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥].

وشمل الجميع في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا

﴿مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر].

بل جعل التائبين من المتقين، وزيَّن الجنَّة وأعدّها لهم؛ قال تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران].

• فما أجملَ وأروعَ أن يصطلح العبد مع مولاه وسيِّده وإلهه ومليكه وربِّ الناس أجمعين. وفي الحديث: { للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ }(١).

• والتوبة تكون من المعاصي والسيّئات، وتكون من التقصير في حقِّ الله تعالىٰ، وعدم موافاته قدره ومكانته ونعمه وفضله.

رأىٰ أحد الصالحين رجلًا علىٰ معصية فقال له: «يا هذا؛ ما هكذا تشكر نعم الله تعالىٰ عليك، ما هكذا جزاء الإحسان؟»، وسمع آخر صوتًا يناديه: «يا هذا؛ لا

---

(١) أخرجه مسلم، ك: التوبة، ب: في الحض على التوبة والفرح بها، ح (٢٧٤٧).

ضرر يلحقنا في معاصيك إنما المراد صيانتك، ولا نفع لنا في طاعتك إنما المقصود ربحك فتدبَّر أمرك»[(١)].

• **والتوبة لها مقدِّمات وشروط ينتفع بها العبد:**

١- أن تقع في زمن التوبة.

٢- الصدق والإخلاص في التوبة.

٣- استحضار نيَّة التوبة، وأن يكون التائب مؤهَّلًا بالإقبال على الله تعالى، فارًّا إليه لكي يتوب الله تعالى عليه أولًا؛ قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ**﴾ [التوبة: ١١٨]، وأن يكون أول ما يتوب منه هو الكُفر والشِّرك، فالتوحيد شرطٌ في قبول التوبة؛ قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧**﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦**﴾ [الزمر].

وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿**لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ [الفتح:٢]، وذلك يكون بعودة العبد إلى الله تعالى رغبةً ومحبةً، وشوقًا إليه، وأن يتذكَّر كبرياءه وعظمته، واستحقار نفسه بمعصيته، وأن يتذكَّر عِظَمِ مَنْ عصاه، واستحياءه منه، وتعظيم الله تعالى وتوفيره، والخوف من مقامه وهيبته وانتقامه وغضبه وعقابه.

٤- الندم على هذه المعاصي؛ و«الندم توبة»، والندم هو الإحساس والشعور بالانكسار لله عَزَّوَجَلَّ، وتحقيق العبوديَّة له وحده سبحانه، والاعتراف له بالتقصير،

(١) كتاب «اللطائف»؛ لابن الجوزي (١/ ١١).

والبكاء من خشية الله تعالى؛ كيف يعصيه وهو رازقه، ومالكه، ومميته ومحاسبه؟ وكيف يعصيه وهو يراه ألَّا يستحي منه؟ وكيف يعصيه وهو في ملكه وتحت أمره وفي قبضته وقدره؟!. ودعاء سيد الاستغفار يشمل هذه المعاني:

{ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ } (١).

والمؤمن يرى ذنبه الصغير كالجبل فهو يتدبر في عظمة من عصاه، والمنافق يرى ذنبه الكبير كالذبابة لضعف مقام الله تعالى في قلبه وعظم مقام الخلق.

٥- الإقلاع عن الذنب؛ وليس المقصود الذنب الذي وقع فيه مؤخَّرًا إنما المقصود إجمالي الذنوب والمحرَّمات والتقصير في الطاعات، فلا يجوز أن يتوب من الزِّنا وهو يتعامل بالرِّبا، ولا يجوز أن يتوب من قول الزور والغيبة والنميمة وهو ما زال يكذب، ولا يجوز أن يتوب من السرقة والرشوة وهو يأكل حقوق عصبته وأقاربه وخاصة النساء والضعفاء في الميراث، ولا يجوز أن يتوب من الهوى وهو يتحاكم إلى قوانين وضعية تضاهي وتعادي حدود الله تعالى وشرعه، وهكذا؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا**﴾ [التحريم].

٦- الإسراع إلى التوبة والمبادرة بها - وهذه من أهم شروطها -؛ لأن العبد يعلم أن له ربًّا يغفر الذنب فلا يتأخر عنه، ولا يتمادى فيه، ولا يعالج ذنبًا بذنب آخر أو بالتقصير في الطاعة والعبادة، وأكثر دعاء أهل النار من التسويف.

---

(١) أخرجه البخاري، ك: الدعوات، ب: أفضل الاستغفار، ح (٦٣٠٦).

وهذا ما طلبه الله تعالىٰ منّا عند التوبة: وسارعوا، وسابقوا، ففرُّوا إلىٰ الله؛ وذلك لأن التوبة لا بُدَّ أن تقع في زمانها، فالله عَزَّوَجَلَّ يقبل توبة العبد ما لم تطلع الشمس من مغربها، ويقبل توبة العبد ما لم يُغرغر، وشروق الشمس من المغرب لا يعلمه إلَّا الله؛ ويأتي فجأة بلا سابق إنذار، وكذلك غرغرة الموت تأتي فجأة. لذلك وجب علىٰ العبد كي تقبل توبته أن تقع في زمان من عمره وهو آمِنٌ قبل طلوع الشمس من المغرب، وقبل الغرغرة، وبلوغ الروح الحلقوم.

٧- العزم علىٰ ألَّا يعود؛ فلو صدق العبد في هذا الشرط وعلم الله تعالىٰ صدق سريرته، وقوة عزيمته وهمته، فإنه يغفر له الذنب.

٨- ردُّ الحقوق والمظالم إلىٰ أصحابها.

٩- تغيير البيئة والصحبة التي ساعدت علىٰ الفساد والمعصية، كما في قصة توبة قاتل المائة نفس؛ خرج من قريته التي شاع فساده فيها، وذهب إلىٰ قرية أخرىٰ أهلها صالحون، ومات في الطريق وتقبَّل الله توبته، وأدخله في رحمته وجنته(١).

والصاحب ساحب؛ فإمَّا أن يكون جليسًا صالحًا يسحبك معه إلىٰ الجنَّة، وإمَّا أن يكون جليسَ سوء يسحبك معه إلىٰ النَّار.

١٠- عمل الحسنات، واستبدال الحسنة بالسيئة ؛ قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ**﴾ [هود:١١٤]، فالذي يعقُّ والديه لن تنفعه التوبة إِلَّا إذا استبدل بالعقوق البِرَّ والرحمة بهم، وأحسن صحبتهما، وأطاعهما بالمعروف، وهكذا.

---

(١) القصة أخرجها مسلم؛ ك: التوبة، ب: قبول توبة القاتل، ح (٢٧٦٦).

١١- العمل على تقوية الإيمان، والإتيان بالأعمال الصالحة؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠]. فاشترط الله تعالى العمل الصالح مع التوبة وصدق الإيمان.

١٢- كثرة ذكر الله تعالى، والحرص على الأذكار والأدعية النبويَّة؛ كسيد الاستغفار، والأذكار بعد الصلاة وقبل النوم، وسائر المكفِّرات من الأذكار والأعمال الصالحة المكفِّرة للذنوب، والتي يغفر الله تعالى بها ما تقدَّم من الذنوب، وإن كانت الذنوب مثل زبد البحر.

١٣- ملازمة الاستغفار كل وقت وحين؛ قبل النوم، وبعد الصلاة، وفي سائر الأوقات، فمن لزم الاستغفار نال كرامة التوبة والمغفرة، والرزق الطيب والولد الصالح، وجعل الله له من كل هَمٍّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب؛ قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود:٣].

١٤- معرفة مداخل الشيطان للعبد، وكيفية تلبيسه على الناس.

أمَّا عن توبة فرعون في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس] فهذه توبة عند غرغرة الموت، وهي توبة لا تُقبل في

هذا الوقت، قال ﷺ: **{ إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ }**(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ**﴾ [النساء:١٨] فالله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل توبة العبد إذا حضره الموت وتيقّن منه، وكذلك لا يقبل توبة الناس إذا طلعت الشمس من المغرب بدلًا من المشرق. وقال ﷺ: **{إِنَّ بِالْمَغْرِبِ بَابًا مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ، مَسِيرَتُهُ سَبْعُونَ سَنَةً، لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ نَحْوِهِ }**(٢).

إنما يقبل الله تعالىٰ التوبة من الذين يعملون السوء بجهالة، ثم يتوبون من قريب؛ ومن رحمة الله تعالىٰ أنه ذكر بجهالة، ولم يقل بجهل، والجهل ضد العلم؛ أي بمعرفة أن هذا العمل حرام، أمَّا الجهالة فكلنا نعصي الله بجهالة قدره جَلَّ وَعَلَا؛ قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ**﴾ [الأنعام:٩١].

إنه إله عظيم كبير، كريم جواد، خالق رازق، حليم سِتِّير، قوي جبَّار، رحمن رحيم، بيده ملكوت كل شيء، وهو علىٰ كل شيء قدير، ما بنا من نعمة وستر فمنه وحده لا شريك له، فكيف يُعصَىٰ هذا الإله؟! وهو المهيمن، وكيف يجحده الجاحد؟!.

ورحم الله عَزَّوَجَلَّ من قال للرجل الذي جاءه يطلب منه التوبة من جميع المعاصي إِلَّا معصية واحدة فقال له: «إذا أردت أن تعصي الله فلا تأكل من رزقه، وإذا أردت أن تعصي الله فلا تعصه في ملكه، وإذا أردت أن تعصي الله فاعصه في

---

(١) أخرجه أحمد، ح (٦١٦٠)، والترمذي في «سُننه»، ك: الدعوات عن رسول الله، ب: ما جاء في عقد التسبيح باليد، ح (٣٥٣٧)، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه أحمد، ح (١٨٠٩٣)، بإسناد حسن عن صفوان بن عسال المرادي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مكان لا يراك فيه، وإذا أردت أن تعصي الله فادفع عنك ملك الموت، وإذا أردت أن تعصي الله فادفع عنك زبانية جهنَّم».

فهذه دعوة لكل عاصٍ وظالم ومُستبدٍّ، أن يدفع عنه غشاوة الغباء، وأن يبصر بعين الحقيقة؛ مَنْ هو؟ ولماذا خُلِقَ؟ وإلى أين المصير؟ وأن يعلم أنه مُساق إلى الله تعالى لا محالة؛ قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة].

وأنه سيقف بين يديه، لا قوة له ولا ناصر، ولا أهل ولا مال، ولا ولي ولا نصير، لن ينفعه أحد، يوم يقول: نفسي نفسي؛ فهيا ننجو بأنفسنا ولا نكابر في الحق، ونسلك سبيل الهدى والرشاد والعدل والهداية، فلن ينفعنا غرور أو تسويف أو كِبْر، ولن ينفعنا غير الله تعالى، إن العمر أيام مجتمعة إذا ذهب بعضها ذهب كلها، ونحن في هذه الدنيا ننقص في العمر مقدار بقائنا في الدنيا ونكبر في السنِّ.

والله سبحانه وتعالى أحنُّ علينا من أمهاتنا والناس أجمعين، وغدًا يوم القيامة لا يعرف إِلَّا أهل التَّقوى وأهل المغفرة.

فهو سبحانه يوم القيامة أشد ما يكون غضبًا على من كفر وعاند وكابر وعصى، وأشد ما يكون رحمة على من آمن به وخشيه واتقاه.

❁❁❁

(٦٧) حَذَرٌ وغَيْظٌ :

• قال تعالى على لسان فرعون: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء].

ما هو سِرُّ الغيظ عند فرعون من أتباع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ وما هو الحذر منهم

أو من دعوتهم؟

فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان واضحًا مع فرعون، وحدد له مطالبه من البداية ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه:٤٧].

مطلب معقول وعادل؛ فبنو إسرائيل سلالة الأنبياء وأفضل العالمين في زمانهم، لكنهم لم يحفظوا هذه النعمة، ولم يقوموا بحقها، ولم يحافظوا على شرف التكليف بها، فعاقبهم الله تعالى بعقوبات كثيرة؛ منها: تسلط فرعون عليهم، حتى أرسل الله تعالى لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

• **سبب غيظ فرعون الأول**: هو كفره وادعاؤه الربوبية والألوهية كذبًا وزورًا. ولا يواجه هذا الباطل إلا حملة الأمانة والمسئولية من أصحاب الديانة.

• **ومن أسباب غيظه أيضًا**: اعتماده على الكهنة الذين أخبروه بأن مقتله على يد ولد من أبناء بني إسرائيل.

• **ومن أسباب غيظه أيضًا**: استقامة موسى ومن معه، وحُسن الديانة. والحاكم الظالم يكشف باطلَه وزيفَه صدقُ الصادقين وصلاحُ المصلحين؛ فما كشف باطل السحرة إلا آية الرحمن في عصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❁❁❁

(٦٨) الإعلام وأثره على المجتمع:

الإعلام من أسلحة فرعون الهامة، والتي سخّرها لخدمته، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ

أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف].

والناس يتأثرون ويتجاوبون بما يصل إليهم، وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليس لديه مثل هذه الإمكانيات من وسائل الاتصال المباشرة مع الناس، والناس بطبائعهم يميلون إلى الأغنياء والأمراء والأقوياء.

وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تصله شكوى بني إسرائيل من فرعون، ويقولون له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف].

فيقول لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف].

والناس كثيرًا ما يفكرون في مصالحهم العاجلة، ومنافعهم القريبة؛ وفرعون يقدِّم لهم الإغراءات المادية من مال ومنصب، ويهددهم بالبطش والقتل والجوع، والناس تفكِّر بعواطفها ومصالحها العاجلة، وكثيرًا ما تفكر فيما يملأ بطونها ويقضي شهواتها، أو تخاف على مصالحها وأرزاقها وأولادها.

والناس إن لم ينفع معهم الإعلام، ينفع معهم إرهاب الإعلام، قال فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر].

وعندما شعر فرعون بقوَّة الحق وهيبته، وأن الصواب والحجَّة معه حين ناظره

مؤمن آل فرعون؛ قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر]. فكان ردُّ فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر]. فلم يستسلم مؤمن آل فرعون لهذا الوعيد والتهديد، لكنه استمر في إقامة الحُجَّة، لأنه يعلم أن الطاغية عندما يتظاهر أمام شعبه وقوّاده ووزرائه بأنه حاكم ديمقراطي يستمع للرأي الآخر، ويشارك أهل الخبرة والرأي في القضايا الهامَّة، وعندما تضعف حججه ويعي ورطته، هنا ينقلب مهدِّدًا متوعِّدًا، فاقد الحكمة لاتخاذ قرار سليم، فلا يرىٰ حينئذ إلَّا البطش والتنكيل، ولا مجال للحوار أو العقل أو التفاهم؛ لذلك كان من بديهيات الحاكم الرشيد ألَّا يتخذ قرارًا وهو غضبان أو منفعل.

هنا استمد الرجل المؤمن هيبته، واستجمع قوته، وشحذ همّته ؛ قال تعالىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر].

فمتى تهتم أمَّتنا بالإعلام، وتُسخره لخدمة الإسلام ومناصرة قضايا الأمَّة الهامَّة؟! وكيف استفاد اليهود من دور الإعلام وقلب الحقائق، حتى صار المحتل المغتصب معتدَيًا عليه، وصاحب الحقّ مجرمًا وإرهابيًّا وقاتلًا، ولا يريد السلام أو التعايش في أمان؟! فإذا مات صهيوني قامت الدنيا وامتلأت ضَجيجًا، وإذا مات العشرات من المجاهدين والمدنيين، صار الأمر دفاعًا عن النفس.

إنه الإعلام المسخَّر لخدمة الاستعمار، فمتى نسخِّر الإعلام لخدمة الحقّ وأهله؟!

❁❁❁

(٦٩) (وأضل فرعون قومه وما هدى):

الحاكم هو الأمين على مصالح الناس؛ قال ﷺ : **{ مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ }**(١)، وأن الذين يَسُوسُون الناس بالسياط لن يدخلوا الجنة.

وقَالَ ﷺ : **{صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا }**(٢).

• **أضل فرعون قومه** من الضلال الذي هو ضد الهدى، فالحاكم نائب عن الله تعالى في رعاية شئون العباد، والمحافظة على دينهم وأعراضهم وأموالهم، لكن فرعون خدع الناس، واستغل سذاجتهم، وطاعتهم له، فاستعبدهم بدلًا من يجعلهم أحرارًا أعزة، واسترهبهم؛ أدخل الرعب والخوف في حياتهم، وسخَّرهم في خدمته بالقيام بالأعمال الشاقة، وادَّعى الربوبية عليهم تارة، والألوهية تارة أخرى؛ فأي هداية يمكن أن تُجعل وراء هذا المستبد الطاغوت الطاغية؟!

• **أضلَّ قومه** عن طريق الحق والهدى بالسحر والشعوذة!

• **أضلَّ قومه** عن طريق التوحيد والنور بادعاء الألوهية!

• **أضلَّ قومه** باستعبادهم وجعلهم شيعًا بدلًا من أن يجعل منهم أمة قوية عزيزة!، وإن قومه أحبوه حب قهر وخوف، لا حب رغبة واحترام. والعجب أن فرعون أضلَّ قومه فكانوا أسبق منه في الضلال وتفوقوا عليه.

---

(١) أخرجه مسلم، ك: الإيمان، ب: اسْتِحْقَاقِ الْوَالِي الْغَاشِّ لِرَعِيَّتِهِ النَّارَ، ح (١٤٧).
(٢) أخرجه مسلم، ك: اللباس والزينة، ب: النِّسَاءِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ ... ، ح (٢١٢٨).

(٧٠) (فاستخف قومه فأطاعوه):

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء].

لم يكن فرعون يفكِّر في أن يدَّعي الألوهية، فهو يعلم علم اليقين أنه بشر مخلوق، وشتان بين الخالق والمخلوق؛ لكنه لما اختبر شعبه بقوله (أنا ربكم الأعلىٰ) كان يتوقع معارضة شديدة، وخاصة من بني إسرائيل، وكان يُعِدُّ لهذه المعارضة جوابًا، فهي من سبيل قولنا: رب الدار، ورب العائلة، ورب الأسرة؛ لكنه وجدهم يسجدون له، فأثبتها بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

بل كما ذكرنا من قبل هم الذين فوَّضوه في قتل موسىٰ ومن معه بقولهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧]. وما كان موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يومًا إرهابيًّا يُفسد في الأرض، بل كان فرعون هو وجنده مصدر الإرهاب ومصدِّريه إلىٰ العالم كله إلىٰ اليوم.

إنْ كانت طاعة الحكام في معصية الله عَزَّوَجَلَّ، فهو أمر ترفضه كل الشرائع السماوية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإنما الطاعة في المعروف؛ لكنها السُّنة السيئة لقومه، فعليهم وزرها ووزر كل من عمل بها إلىٰ قيام الساعة.

❁❁❁

(٧١) (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين):

فبدأ المقارنة المنكوسة؛ فشتَّان بين فرعون وموسىٰ في المقارنة، وأساس المقارنة فاسد، والموازنة معكوسة، والاغترار بالظاهر أهلك قارون(١) مما جعل الذين قالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٧٩﴾ [القصص] يقولون: ﴿لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٢﴾ [القصص].

مبدأ فرعوني أسَّسه فرعون، وقالته قريش للنبي ﷺ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف].

ألم نذكر من قبل: **أن الكُفر ملَّة واحدة.**

وسبحان الله؛ هذا يا فرعون في نظرك مهين ولا يكاد يبين، هو سيد الخلق في زمانه وهو كليم الله، نبيٌّ ورسولٌ، أعطاه الله خيرًا مما ابتلاك به من متاع الحياة الدنيا، وأيَّده بمعجزات باهرات، وكلَّمه تكليمًا، وأبقىٰ أتباعه وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها، وأحسن ذكراه في دنياه وبعد الممات... ونصلِّي ونسلِّم عليه إلىٰ يوم الدين، وأنت أُهلِكْتَ في اليمِّ ذليلًا، تلحقك اللَّعَناتُ إلىٰ يوم الدين، تقدُم قومَك حتىٰ تُورِدَهم النار يوم القيامة.

فأين أنت يا حقير يا مهين يا ذليل من موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عزيزًا عظيمًا؟!

❁❁❁

---

(١) انظر كتابنا «مائة وخمسون عبرة وفائدة في قصة قارون».

(٧٢) الصبر واليقين:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

من أراد أن يتعلم الصبر من العلماء والدعاة إلى الله تعالى، فليتعلمه من أُولي العزم من الرُّسُل، وَأَخُصُّ منهم كليم الله تعالى موسى بن عمران عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وكيف كان صبره مع بني إسرائيل وحلمه معهم، ومع فرعون وقارون وهامان... ثم يتعلمه من خاتم الرُّسُل وسيد البشر رسول الله محمد ﷺ الذي كان نموذجًا في الحُلْم والصبر والحكمة.

فالإمامة في الدنيا وطلب الحكم والإمارة لا تُعطَى في الإسلام لمن يطلبها ويحرص عليها، فمن طلبها وحرص عليها كانت له خزيًا وندامة، ولا يُعان عليها من الله عَزَّوَجَلَّ.. أمَّا من جاءته وهو غير طالب لها أو حريص عليها وكان أهلًا لها، جاءه العون من الله عَزَّوَجَلَّ، وأخذها بحقِّها.

منهج إسلامي راقٍ، على خلاف مناهج من يدَّعون الديمقراطية، فيفوز في الانتخابات من يملك مالًا أكثر، ويقوم بدعاية أكبر، ويروِّج له الأفَّاقون والمنافقون، وتُعلَّق صورهم في كل مكان كأنها مسابقة لاستعراض أجمل صورة، وكأن الناس عادت لعبادة الصور وتمجيدها من جديد، ويا ليتهم عرضوا إنجازاتهم وخدماتهم وسابقة أعمالهم وخبرتهم في مجال العمل الخدمي والنفعي للناس في دائرتهم. لكنها الحسرة والندامة على نظم البشرية التائهة الحيرانة،

ينفقون الآلاف بل الملايين من أجل دعاية أغلبها كاذبة، ويخسر الجميع إِلَّا واحد.

ملايين ومليارات تُهدر هباءًا منثورًا، ولا حساب ولا رقيب، أمَّا لو تجمعت هذه الأموال، واتفق الجميع في كل دائرة علىٰ إنفاقها لخدمة الحي ومصالحه وتنمية البيئة، ثم اتفقوا علىٰ اختيار واحد منهم متميز بينهم بالخبرة والعلم والدين، ثم تعاونوا كأنهم يدٌ واحدة، أليس ذلك أنفع وأجدىٰ للناس؟!.

• **أمَّا الإمامة في الدين** فلا تُنالُ إِلَّا بعد شوط كبير وجهد وجهاد في العبادة وطلب العلم وخشية الله عَزَّوَجَلَّ، **وفي هذه الآية حُدِّدَ لها ثلاثة شروط:**

الأول: يهدون بأمر الله عَزَّوَجَلَّ؛ فلا بدعة ولا هوىٰ، أصحاب علم بالكتاب والسُّنَّة المشتملَيْنِ علىٰ أمر الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يتكلمون إِلَّا بدليل صحيح، وفقه واعٍ لأحكام هذه الأدلَّة؛ فَهُمْ علىٰ بينة من أمر الله تعالىٰ وأمر رسوله ﷺ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ١٤﴾ [محمد]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٩﴾ [الزمر].

الثاني: الصبر؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ [الزمر]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠﴾ [القصص]، فالمشوار طويل أمامهم، يرافقهم الصبر عند أداء الطاعات حتىٰ تؤدَّىٰ علىٰ أكمل وجه وأتم حال من المتابعة للنَّبيِّ، ويلتزمون بالصبر بالبعد عن الفواحش والآثام، وأماكن اللَّهو والعبث، والتنافس في الدنيا، كما يتنافس فيها الناس، ويلتزمون بالصبر علىٰ المباحات، وفي الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وما يلحق بهم من أذىٰ أو مكروه أو قَدَرٌ لا يتماشىٰ مع مصالحهم ورغباتهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ

﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران].

والثالث: اليقين في وعد الله ونصره لهم؛ وفي الجنَّة التي أعدّها لهم، فهم لا يبغون عنها حِوَلًا. وهذا اليقين فرق واضح بينهم وبين الذين يسيرون في الطريق ثم يتساقطون؛ فالطريق إلى الله تعالى طويل وشاقّ، والمتساقطون فيه كُثر. ومن الناس من يسقط من أوله، ومنهم من يسير حتى المنتصف ويسقط، ومنهم من يسير فيه حتى يقترب من النهاية ويكون بينه وبين الجنَّة ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيكون من أهلها. فالطريق إلى الله تعالى طويل وشاق، نسأل الله تعالى الثبات على الحق، ونسأله حُسن الختام.

وقصة الثبات في تاريخ الأنبياء واضحة، وتتجلى معنا في قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكيف تردَّد قومه من بني إسرائيل واستعجلوا الأمور، على الرغم من المعجزات التي أيَّد الله تعالى بها نبيَّهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ من نجاتهم من تحت الجبل، ونجاتهم من فرعون وجُنده وعبورهم اليمِّ سالمين غانمين، وإجابة سؤالهم بطلب خيرات المدن، وإحياء الرجال السبعين الذين ذهبوا مع موسى لملاقاة الله عَزَّوَجَلَّ، إلى غير ذلك. ولو ثبتوا لكانت لهم الإمامة في الدين إلى يوم الدين، ولكنها كانت من نصيب أصحاب النَّبي الخاتم محمد ﷺ لثباتهم على الحقِّ وعدم تردُّدِهم في قبول دعوته أو نصرته ﷺ.

۞۞۞

(٧٣) (استعينوا بالله اصبروا):

الاستعانة بالله تعالى نصف الدين، والصبر نصفه الآخر، وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا ۝٢٤﴾ [السجدة].

الاستعانة بالله = إياك نستعين = بآياتنا يوقنون

والصبر = إياك نعبد = يهدون بآياتنا

- لا يقوى مسلم على عبادة الله إلا بالصبر والاستقامة.
- لا يقوى مسلم على مواجهة الباطل إلا بالصبر والاستقامة.
- لا يقوى مسلم على ضبط النفس والبعد عن المحرمات إلا بالصبر والاستقامة.
- لا يقوى مسلم على مجابهة ظروف الحياة وقسوتها إلا بالصبر والاستقامة.
- لا يقوى مسلم على مواجهة الكفر والجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى إلا بالصبر والاستعانة.

منهج أرسى قواعده موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبنى بنيانه رسول الله محمد ﷺ.

وفي الحديث: { إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ }(١).

والاستعانة بالله تعالى هي عزة الإيمان لدى المسلم، فلا ينبغي أن يذل نفسه

(١) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة، ح (٢٥١٦)، وقال: حديث حسن صحيح.

بسؤال غيره.

والصبر مطية المسلم وجواده الأصيل الذي يصل به إلى الله تعالى، والاستعانة بالله تعالى هي الغِنى والعزة، فالصبر والاستقامة هما منهج حياة المسلم في عقيدته وعبادته ومعاملته وأخلاقه ومنهج حياته.

❁❁❁

(٧٤) بكاء السماء والأرض:

في الدنيا جنود لله عَزَّوَجَلَّ لا يعلمها إِلَّا هو؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

والسماء والأرض من خلق الله تعالى المعبدُ له، يبكيان على موت الصالحين، أمَّا الطغاة والمُستبدين: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان].

نزلت هذه الآيات في قوم فرعون؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان].

فالكون كله يتفاعل ويتوافق مع سُنن الله عَزَّوَجَلَّ، وعلىٰ القائمين بالإصلاح وفق هذه السُنن بمنهج الله ورسله.

فرعون الذي ملأ الأرض ضجيجًا، خرج منها وما استفادت الدنيا منه سوىٰ أنه شغل حيزًا فيها، وما هلاكه وجُنده في اليمِّ إِلَّا من غضب البحر وهو من جُند الله تعالىٰ عليه، فما من يوم إِلَّا وتكاد السموات والأرض والجبال يتفطرن من أفعال هؤلاء المجرمين.

ولقد بكَىٰ جذع النخلة لفراق النَّبيِّ ﷺ لَمَّا صُنِعَ له المنبر فخطب عليه وتركه. فالكون في حركة تسبيح لله تعالىٰ، تدور مع سُنن الله تعالىٰ. فتبكي السماء والأرض لفراق الصالحين، وتفرح لفراق المفسدين من عليها؛ لأنهم شغلوا فيها حيزًا لم يتوافق مع عبوديَّتها لله تعالىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ** ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان]، وقال سبحانه: ﴿**وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

ولقد سبَّح الحصىٰ في يد النَّبيِّ ﷺ وسمعه أبو بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، ولقد خرجت ناقة صالح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من جبل صلد تَسقي الناس لبنًا سائغًا للشاربين، ولقد انشق القمر للنَّبيِّ ﷺ، وسلَّم عليه الشجر ﷺ.

إنها البُشْرىٰ لأهل الإيمان، أصحاب العقيدة والعبادة الصحيحة، ويتوافق معهم الكون كله من نباتات وجمادات.

وإنها الحسرة لأمثال فرعون ومن كان علىٰ نهجه وسلوكه.

❁ ❁ ❁

(٧٥) (فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام أمين وكذلك أورثناها قومًا آخرين):

مَن الذي أخرجهم؟ وما الأسباب التي استحقوا بها الخروج؟ ولماذا أعطاهم جناتٍ وعيونًا وزروعًا ومقامًا كريمًا؟

وهذه الآية كقوله تعالى للكفار يوم القيامة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠].

فالذي أعطاهم هو الله، والذي أخرجهم هو الله، فإذا كانت المهالك كلها بيد الله تعالى، فلماذا تتجاهل وتظن أنه يسعك الاستغناء عنه!

حقًّا: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]؛ يطغى لما ظن أنه استغنى بماذا؟ بنعم الله تعالى عليه، بعطايا الله تعالى له، وهو في قبضته وفي ملكه وسلطانه، وتحت مشيئته، يحيط به قدرته. أخرجهم الله من جنات وعيون، بذنبهم وإعراضهم وتكذيبهم، فما دامت لهم، ولا داموا هم لها.

لم يحفظوا الأمانة، فلم يستحقوا الرعاية والعناية، تكاد السموات يتفطّرن، وتكاد الجبال أن تخر هدًّا، لما كان من خلق الله تعالى أناسٌ يَدَّعون أنَّ لله تعالى ولدًا!.

۞۞۞

(٧٦) لهم الدنيا ولنا الآخرة، والآخرة خير وأبقى:

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء].

في هذه الآيات دليل على أن الدنيا جنة الكافر، والآخرة جنة المؤمن، وحال فرعون هو كسرى وقيصر الذين ينامون على الحرير، في حين أن خير الخلق وأشرفهم وأعلاهم قدرًا سيدنا محمد ﷺ ينام على الحصير الذي يؤثر في جنبه الشريف. قال الله تعالى للكافرين وهم في جهنم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف].

❁❁❁

(٧٧) العلم سلاح ذو حَدَّيْن:

لا ينكر أحد فضل العلم والعلماء، ومنزلة العلم بين أهله، ولكن هذا **العلم له جانبان**: الأول مُضيء ومنير، والثاني مظلم وكئيب.

الأول: يؤدي إلى الرُّقي بالإنسانية ورفعة شأنهم، ونفعهم، والعمل على توفير الأمان والسلامة لهم.

والثاني: يعمل على نشأة الجدال والخلاف والشقاق، والتنازع والتنافس، والعمل على استغلال الإنسان، وحرمانه من الأمان والسعادة.

والأول: لمن أخذه بحقه، وقرأ فيه باسم الله تعالى، وجعل العلم خادمًا للغاية التي خُلِقَ من أجلها من تحمل أعباء الأمانة والخلافة والعبوديَّة لله تعالى؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن].

فكان خلق الإنسان محصورًا بين علم القرآن وعلم البيان لخدمة القرآن.

قال الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق].

فكلما كانت القراءة باسم الله، ارتقت بخلق الإنسان وازداد كرم الله تعالى للعلماء والمتعلمين، وفتح عليهم بعلوم لم يكونوا يعرفونها من قبل.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: في شأن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝١٧ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٩﴾ [الجاثية].

وقد وقع الخلاف بينهم من بعد ما جاءهم العلم، واختلفوا على أنبيائهم في حياتهم وبعد مماتهم، ومنشأ هذا الخلاف هو اتِّباع الهوى، وتفضيل الرأي على الشرع، والتعالي بالعقل فوق طاقته، وليُّ النصوص عن معناها.

ولقد امتاز أصحاب النَّبي ﷺ بنُدرة الاختلاف عليه، في حياته وبعد مماته

ﷺ، لأنهم يعلمون أن الحق واحد لا يتعدَّد، والحق هو ما جاءهم من عند الحق جَلَّ وَعَلَا عن طريق رسول الحق محمد ﷺ.

فكانت تعاليمه وهَديه ثابتة ومحفوظة لأصحاب الحقِّ، وحُجَّة علىٰ من خالفهم من أصحاب الرأي والهوىٰ.

ولا شَكَّ في النتيجة القدريَّة التي تُعبِّر عن سُنَنِ الله تعالىٰ، في أن الخلاف علىٰ النبيِّين نهايته الهلاك والدمار، وما هلاك فرعون وغرقه في اليمِّ إِلَّا نتيجة ذلك!.

وإذا أردت أن تتعرف علىٰ هذه الحقيقة فانظر إلىٰ الخرِّيجين من الجامعات بالملايين، وأثر هذا العلم (المنفصل عن الدين) المجرَّد عن خشية الله تعالىٰ، في تفريخ الأفكار الشَّاذة والمنحرفة والمضادة للفطرة. فما وجدنا أكثر الملحدين في بلاد المسلمين - وخاصة أرباب الفكر الشيوعي -، وجماعات البهائية وعَبَدَة الشيطان، والمنتسبين إلىٰ نوادي «الروتاري والماسونية»، إِلَّا من هؤلاء، ثم انظر إلىٰ حصادهم العلمي وعدد ما قدموا من مخترعات وعلوم جديدة بالنسبة إلىٰ غيرهم في بلاد غير المسلمين؛ مما يعكس ضعف مستواهم العلمي، وطريقة التعليم الخاطئة، والأفكار غير السويَّة التي تدور في عقولهم، وأنه ليس هناك عقيدة تدفعهم للإخلاص والتقدُّم والرُّقي ببلادهم؛ وصدق الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر].

وكذلك قارون قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ

قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾ [القصص].

فما نفع قارونَ مالُهُ، بل خُسِف به وبداره وكنوزه الأرض، ومانفع فرعونَ الجاه ولا السلطان والملك، بل غرق هو وجنودُه في اليمِّ.

۞۞۞

(٧٨) نقض العهد ، وخلف الوعد:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝١٣٥﴾ [الأعراف].

هذه أيضًا من الصفات المشتركة بين الكافرين والمنافقين؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٧]. وفي حديث خصال المنافقين: { وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ } الحديث[1].

وهذه صفة فارقة بين الحاكم العادل والحاكم الظالم، بين الحاكم الصالح والحاكم المستبدِّ الفاسد.

وهذه من أحظى صفات بني إسرائيل الذميمة والتي اشتهروا بها؛ قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري، ك: المظالم والغصب، ب: إذا خاصم فجر، ح (٢٤٥٩)، ومسلم، ك: الإيمان، ب: بيان خصال المنافق، ح (١٠٦).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [المائدة:١٣].

وهي صفة ملازمة لأعداء الإيمان؛ قال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة:١٠]. فقد عاهدوا موسى لئن كشف الله تعالى عنهم الرجز ليؤمنُنَّ به وليرسِلُنَّ معه بني إسرائيل، فلما دعا موسى ربه تعالى وكشف الله عنهم العذاب نقضوا كلامهم، ونكثوا أيمانهم، وهم يجهلون سُنَّةَ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

❁❁❁

(٧٩) الجهالة والجهل:

لما أنقذهم الله بني إسرائيل من الغرق، وأراهم آية إغراق فرعون وقومه، مرُّوا على قومٍ يعكفون على أصنام لهم فقالوا له: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)﴾ [الأعراف].

والجهل ضد العلم، والأميَّة ضد القراءة والكتابة، فقد يكون الرجل أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه يكون عالمًا بكتاب الله وسُنَّة رسوله، وقد يكون الرجل يقرأ ويكتب ولكنه جاهل جهول بأمر دينه من كتاب وسُنَّة.

ومِن الناس مَن يعصي اللهَ تعالى على جَهْل، فيُعذَر بجهله، وقد يُعاقِبه ربُّه على إهماله في تحصيل العلم الواجب عليه شرعًا، ومن الناس من يعصي اللهَ تعالى على جَهالة بقدْرِ الله تعالى ومكانته، وجَهالة بنعمه وآلائه وفضله عليه، وجَهالة بقدرته وقبضته عليه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾

[النساء:١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١].

❁❁❁

(٨٠) (قالوا أرنا الله جهرة):

طلبوا ذلك من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وطلب ذلك موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ربِّه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾. فكان الجواب بدكِّ الجبل بعد أن أعلمه بعدم رؤيته له: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف]، بينما كان جوابه لبني إسرائيل عندما طلبوا مثل ذلك بأن أخذتهم الصاعقة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة]، ذلك لأن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ طلب الرؤية شوقًا ومحبة وتلذُّذًا برؤية ربه جلَّ وعلا، بينما طلب بنو إسرائيل الرؤية شكًّا وسخرية واستهزاءًا ولهوًا ولعبًا.

ولقد سأل الرجل الذي مرَّ على قرية وهي خاوية: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة:٢٥٩].

ولقد سأل إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربَّه: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ﴾[البقرة:٢٦٠].

تكرَّرت هذه الأسئلة ممن سبق، ولم يطلبها أحدٌ من أمَّة النبيِّ ﷺ، إلا بالدعاء **(اللَّهُمَّ إِنَّا أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ)**.

وقضىٰ الله تعالىٰ أنه لا يُرَىٰ في الدنيا؛ قال تعالىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام]. فهذه الأبصار في الدنيا غير مؤهلة لهذه الرؤية، ولكنها في الجنة - كرامة لأهلها - تكون مؤهلة؛ قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة].

وقال ﷺ: { إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ }[١].

❁ ❁ ❁

(٨١) (فاليوم ننجيك ببدنك):

قال الله تعالىٰ لفرعون بعدما أشرف علىٰ الغرق وأعلن إيمانه بربِّ موسىٰ وهارون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس]، وقال سبحانه: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف].

نجَّاه الله تعالىٰ ببدنه جزاء وفاقًا لهذه اللحظة التي أعلن فيها إيمانه في وقت وزمن لا تنفع فيه التوبة، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ ليس بظلَّام للعبيد، لا يظلم الناس شيئًا، ثم جعل البدن الذي ادَّعىٰ به الربوبيَّة والإلهية عِبرة ودليلًا علىٰ عجز هذا الإنسان الذليل، فأين ما كان يدَّعيه من ملك مصر، وهذه الأنهار التي تجري من تحته، وأنه خير من موسىٰ الفقير الضعيف في نظره وأمام شعبه.

---

(١) أخرجه البخاري، ك: مواقيت الصلاة، ب: فضل صلاة العصر، ح (٥٥٤)، ومسلم، ك: المساجد ومواضع الصلاة، ب: فَضْلِ صَلَاتَيِ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا، ح (٦٣٣).

كما أن في نجاته ببدنه دليلًا على إعجاز القرآن وصدق خبره، وأنه وحي من عند الله تعالى، لا يأتيه الباطل، وكل ما أخبر به صدق، ويقع كما أخبر، فهذا بدنه الذي يجول العالَمَ ويشاهده كل يوم الآلاف من البشر دلالة على صدق الله تعالى؛ ومن أصدق من الله حديثًا؟!.

والآية هي العلامة والدلالة، تأتي للعظة والاعتبار لأولي الأبصار، فهل تعلَّم المسلمون الدرس من هذه الآية؟!.

وهل اعتبر وانزجر كل ظالمٍ ومستبدٍّ، وكفَّ عن طغيانه وظلمه، وأخذ الدروس والعبر من هذه الآية؟!

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١].

وهذه الآيات كما قال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

قالها الله عَزَّوَجَلَّ في هلاك قوم لوط، وقوم نوح، وقوم صالح، وغيرهم، فهل مرتكبو هذه الفواحش في هذا الزمان في أمان وضمان من عدم الهلاك؟.

۞۞۞

(٨٢) هداية الله لمن؟

قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء].

الهداية من الله تبارك وتعالى، ولكن لِمَنْ؟ وهداية الله عَزَّوَجَلَّ عامَّة لا يحتكرها أحد، ولا قوم دون قوم، ولا جنس دون جنس، ومن عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ وحكمته أن

جعلها متوقفة على توبة العبد وأوبته إلى الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

وحجَب التوبة عن الكافرين والظالمين والضالين والفاسقين، وعن كل مسرف كذَّاب ومرتاب؛ فقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر]، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر].

فكلُّ من تحرَّك وتاب وأناب هداه الله ووفَّقه الله وأعانه وزاده هدىً؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف].

• وهداية الله عَزَّوَجَلَّ قد تكون للدلالة ومعرفة الحق من الباطل، وهذه تكون للرُّسل والدُّعاة والوُّعاظ والعلماء؛ يرشدون الناس ويعلمونهم الحق من الباطل، والحرام من الحلال. قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى].

• وهناك هداية التوفيق والثبات، وهذه حق محض لله عَزَّوَجَلَّ يهبها لمن يُحب من عباده. قال تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

❁❁❁

(٨٣) متى يحبط العمل؟

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأعراف]، قال الله تعالى بعدها: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ ﴾ [الأعراف:١٤٨].

وقال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر].

فالذي يحبط العمل هو: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ قال تعالى في الحديث القدسي: { **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ** }[1].

• وأول شيء فرضه الله تعالى على الناس أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، فإن فعلوا ذلك كان حقًّا على الله تعالى أن لا يعذبهم، وأن يدخلهم الجنة.

والذي يُحبِط العمل أيضًا: التكذيب بآيات الله، فالذي يكذب بآيات الله تعالى لا يعرف طبيعة نفسه، ولا حقيقة عقله، فالله سبحانه خلق العقل البشري وجعله محتاجًا إلى وحيٍ يقوده، ويكمل نقصانه، ويرشده إلى الخير ويحضه عليه، وينهاه عن الشر ويبينه له. فكيف يكذِّب الإنسان بآيات ما جاءت إلا بالخير له، ولبيان طرق النجاة من طرق الغواية والضلال، وكان جزاءًا وفاقًا لهذا التكذيب والإنكار لآيات الله، أن يحبط الله تعالى عمله ولا يقبله ولا يرفعه إليه.

والذي يحبط العمل أيضًا هو: التكذيب باليوم الآخر، فالإنسان الذي لا يعرف

---

(١) أخرجه مسلم، ك: الزهد والرقائق، ب: من أشرك في عمله غير الله، ح (٢٩٨٥).

مصيره، ولا إلى أين يسير؟ ولا يفكر في مستقبله، فيكذِّب بلقاء الله تعالى، والدار الآخرة، وكأنه يقول مقوله الدهريين: نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر.

ونسي أو تناسى أن الآخرة خير من الأولى، وأن الآخرة خير وأبقى، وأن العاقل «يعمل للدنيا على قدر بقائه فيها، ويعمل للآخرة على قدر بقائه فيها، ويعمل لله تعالى على قدر حاجته إليه».

والذي يحبط العمل أيضًا: الرياء، وهو الشرك الأصغر.

والأنواع الثلاثة «الشرك، والتكذيب بآيات الله، واليوم الآخر والرياء» تحقَّقت في فرعون وجنوده، وتحقَّقت فيمن وقع في الشرك من قوم موسى، وكان الجزاء من جنس أعمالهم، جزاءًا وفاقًا، فلا بركة في أعمالهم، ولا إصلاح فيها؛ لأن الله تعالى لا يُصلح عمل المفسدين، ولها أجر وثواب عليها في الآخرة.

❁❁❁

(٨٤) الخسران لمن؟

قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف]

اعتراف وإقرار بأن الشقيَّ من حُرِم من رحمة الله تعالى، وأن السعيد من وفِّق لنيل رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.. وأن الشقيَّ من حُرِمَ المغفرة من الله تعالى على ذنوبه، وأن السعيد من وفِّق للتوبة فغفر الله له ذنوبه وستر عيوبه.

قالها آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما نَسي وأكل من الشجرة، وكانت هي الكلمات التي تلقَّاها من ربه ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة].

وقالها الذين عبدوا العجل بعد أن تبيَّن ضلالهم وأنهم كانوا ظالمين، وكانوا

مفترين، ومن لم يتب منهم سيناله غضب من ربه، وذلة في الحياة الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[الأعراف].

• أصناف الخاسرين:

الذين اتخذوا الشيطان وليًّا من دون الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ [النساء].

الذين كذبوا بآيات الله؛ قال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:٣١].

الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم؛ قال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٤٠].

الذين تلبَّسوا بالفتن ووقعوا فيها؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ﴾ [الحج:١١].

الذين يبتغون غير الإسلام دينًا؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران].

- الكافرون والمبطلون؛ قال تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر]، وقال سبحانه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر].

- المشركون؛ قال تعالى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزمر].

- المرتدون؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المائدة].

الذين زيَّن لهم الشيطان أعمالهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [الكهف].

الذين يكيدون بأهل الصلاح؛ قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾ [الأنبياء].

الذين يطفِّفون في الميزان؛ قال تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١)﴾ [الشعراء].

❁❁❁

(٨٥) والآخرة خير وأبقى:

قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤)﴾ [الضحى]، وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)﴾ [الأعلى].

• إنَّ إرادة الآخرة مقدَّمة على إرادة الدُّنيا، وإرادة الآخرة هي التي تنظِّم أمور الدنيا للعبد، وإرادة الدنيا إذا طغت على إرادة الآخرة كان هذا بداية الخسران والطغيان.

- وإرادة الآخرة لا تكون إلا إذا كانت الدنيا مزرعة للآخرة، وكل من أراد الآخرة، ناله من الدُّنيا نصيبه فيها أوفى، وكان أسعد حالًا، وأهنأ بالًا.

- وإرادة الآخرة تجعل الإنسان أسير إحسان الله تعالى عليه، فيحسن كما أحسن الله إليه، ولا يفسد في الدنيا بهذه النعم؛ لأن الله تعالى لا يحب المفسدين، وهو بإرادة الآخرة حريص على حبِّ الله تعالى له؛ لذلك فهو بعيد كل البعد عن الإفساد في الأرض، وبالتالي فهو أنفع للناس وأحرص على مصالحهم من غيره.

- وإرادة الآخرة هي غاية الصالحين، ومنتهى آمالهم، ومحط أنظارهم، لا يبغون عنها حولًا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

- وإرادة الآخرة هي أساس عقيدة التوحيد، وثبات الإيمان وقوة شكيمته، وهي سِرُّ السعادة وراحة البال لما تحققه للعبد من الرضا بالقضاء والقدر، والتطلُّع إلى الجنة ونعيمها؛ فتهوِّن عليه الدنيا وكدرها والمصائب فيها.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

وقال السَّحرة لما آمنوا: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه].

❀❀❀

(٨٦) الفرح المحمود والفرح المذموم:

ومن هذه السُّنن الضابط لفرح الإنسان وغبطته، فالفرح بظاهر النعم يمتاز بأنه فرح مؤقت بنعمة صفوها كدر، لا تدوم على أحد، وقد تكون سببًا في هلاكه؛ كما حدث لقارون وغيره.

لذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص].

ولكن الفرح بفضل الله ورحمته، والشعور بذلك الفضل يولد عند العبد الرضا بعطاء الله، والقناعة بفضله، فلا يتكبر المرء بها على خلقه، ولا يصيبه الغرور الذي يصيب أهل الدُّنيا، ويبخل بها أن تصرف في معصية الله، ويكون حريصًا على حق الله

فيها، والانتفاع الأمثل بها؛ لذلك أمر الله تعالى عبادة أن يفرحوا بذلك الفضل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس].

والفرح بفضل الله تعالى والشعور برحمته في النعمة يحمي الإنسان من الطغيان بها، ويحفظه من تزيين الشيطان له أنه استغنى بها فيصرفه عن ربه جَلَّ وَعَلَا ويُشغلها بها عن الدعاء له والاستعانة به، وكثرة ذكره وشكره؛ قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق].

❁❁❁

(٨٧) العلم الرباني والعلوم الإنسانية:

الفارق بين أهل العلم بالدين، وبين أهل العلم بالدُّنيا:

- **أهل الدُّنيا** غرَّتهم المظاهر فانخدعوا بها، وتألموا لفواتها، وامتلأت قلوبهم تارة بالحسرة، وأخرى بالحسد، وثالثة بالحقد، ورابعة بندب حظوظهم العاثرة، وكم من أُناس غرَّهم المظهر دون المخبر فدفعوا ثمن ذلك شقاءً وتعاسة وسنوات ضاعت من أعمارهم.

- **أمَّا أهل العلم والصلاح**، فهم على بصيرة من سُنن الله تعالى، ويعلمون أن وراء هذا الظاهر تكمُن نفسٌ إمَّا صادقة صالحة، وإمَّا كاذبة خادعة طالحة، فلا يهتمون ولا يغترون بالظاهر إلَّا إذا تبعه عمل صالح يُبرهن على أن هذا الظاهر ليس مظهرًا خادعًا، يعلمون أن ثواب الله تعالى لمن يرضى برزق الله وعطائه، وقضائه، وقدره، هو خيرٌ له؛ لأنه سرُّ السعادة والهناء؛ قال تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ

﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾ [القصص].

وثواب الله تعالى ينفع صاحبه في الدنيا؛ لأنه أجر على عمل صالح ينفع العبد، ويُرضي الرب، ويعود بالنفع عليه في الدُّنيا والآخرة.

وهذه النعمة لا ينالها إلَّا أهل الصبر، الذين يصبرون على ذهاب النعم أو إتيانها؛ لأنهم يعلمون أن الله تعالى إذا حرمهم من نعمة فقد أبقى عليهم ملايين النعم الأخرى، ويعلمون أن وراء هذا الحرمان عطاءً أوسع وأنفع لهم، وأن ما عند غيرهم من النعم، يخفي خلفه كثيرًا من النقم والتعاسة والأقدار المؤلمة.

- **وأهل العلم بالدين** يسخِّرون علومهم المادية وفق ما أمرهم الله تعالى به في قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق]، فتكون علومهم المادية نافعة صالحة في خدمة الناس وسعادتهم.

- **أمَّا أرباب العلوم المادية البحتة** فقد يشتركون معهم في ذلك، ولكن في الغالب ينحرف العلم بهم لما فيه شقاء البشرية من علوم الذرَّة وأسلحة الدمار الشامل، ومن ارتباط علومهم بالحرية والإباحية، والاعتماد على العقل بعيدًا عن الوحي.

• وفي نجاة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يوم عاشوراء عبرة في ذلك، فإن قارون لم ينفعه علمه الذي جمع به كل هذه الكنوز حسب قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نفعه العلم الذي تلقاه عن طريق الوحي وكان سببًا في نجاته لَمَّا أحسن استغلاله واستعماله فيما ينفع الناس، وفي الوقت الملائم، فضرب بعصاه البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، معجزات من الله عَزَّوَجَلَّ، لكن البشر يحاول أن يناطح ويستغل السحر ويشبهه بالمعجزة فأنَّى له ذلك؟!

عِلْمُ الله تعالىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أورثه التواضع والحلم والأناة، وخدم به الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ وتوحيده وهداية الناس لربِّ العالمين، والتقرُّب به إلىٰ الله تعالىٰ وحُسن عبادته وشكره.. وعلم قارون أورثه الكِبر والعجب والغرور والتعالي علىٰ الناس، والبغي بغير الحق والبطر، واستعمال السحر الذي حرَّمه الله ورسوله.

۞۞۞

(٨٨) ماذا لو بسط الله الرزق لعباده؟!

تتجلَّىٰ حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في بسط الرزق لمن يشاء من عباده وتقديره، وكيف يكون الحرمان منَّة من الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يقع البلاء وقد يُنسيهم حلاوة النعم، ويذيقهم مرارة الألم؟.

وَرَحِمَ الله الشافعي عندما قال:

لا حـزنٌ يـَـدومُ ولا سُـرورُ ... ولا بُـؤْسٌ عَلَيْـكَ ولا رَخـاءُ

وَرِزْقُكَ لَيس يَنْقُصُهُ التَّأَنِّي ... ولَيْسَ يَزيدُ في الرِّزْقِ العَنـاءُ

• **ومن عوامل طمأنينة القلب** قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في تعريفه اليقين في الرزق: «أَلَّا تُرضي أحدًا في سخط الله، ولا تحمد أحدًا علىٰ رزق الله، ولا تلومنَّ أحدًا علىٰ ما لم يؤتك الله، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره، وإن الله بقسطه جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجل الهَمَّ والحزن في الشك والسخط».

والأصل في الإسلام أن الإنسان لن يموت حتىٰ يستكمل أجله ويستوفي رزقه، وما دام الأمر كذلك فلماذا عندما يتأَخَّر الرِّزق عنه يطلبه بمعصية الله تعالىٰ؟!.

إن ما عند الله تعالىٰ من الرزق الحلال والبركة فيه لا يأتي بمعصية الله تعالىٰ (أي لا يأتي باستعجال في الرزق بطلبه بوسائل غير مشروعة، كالسرقة والرشوة وشهادة الزُّور والرِّبا والغش والتطفيف في الميزان، وما شابه ذلك)، ما على المسلم الواعي إِلَّا أنْ يُجمِل في الطلب والدُّعاء لله تعالىٰ في حوائجه، ويُتقِن عمله ويعمله بإخلاص، فذلك من أبواب حُسن الطلب.

وفرعون وقارون نماذج لمن بسط الله عَزَّوَجَلَّ لهم الرزق فبغوا في الأرض مفسدين، وكفروا بدلًا من أن يشكروا، فأحلوا قومهم دار البوار، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم]. لذلك اعتبر الذين قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص].

فلما خسف الله تعالىٰ به، قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص].

❁❁❁

(٨٩) (لا يفلح الكافرون):

قال تعالىٰ: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص].

سُنَّة عظيمة، فأي فلاح ينتظر الكافر، وهو يجمع في الدنيا مع بسط النعم الظاهرة عليه (النكد، والتعاسة، والضلال، والتيه، والتردد والقلق، والأسر في دائرة الرغبات والشَّهوات، والعُري والجوع والحرمان لروحه التي تسكن جسده، والشتات والحيرة، والحرمان من راحة البال)؛ هذا أو بعضه يُصيبه في الدنيا، أمَّا

الآخرة؛ فأي فلاح ينتظره بعد غمسةٍ واحدة في النار، فيُسأل: هل رأيت نعيمًا قط؟ فيقول: لا وربي ما رأيت خيرًا قط منذ ولدتني أمي!.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ [محمد]. وبعدها بآياتٍ قليلة قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾ [محمد].

فتأمَّل سبب ضلالهم وتعاستهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾، وتأمَّل في سبب صلاح حال وبال أهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

مثال واضح يضربه الله عَزَّوَجَلَّ لنا في القرآن الكريم، يتجدد كل يوم في واقعنا ومن حولنا، وتظل معجزة القرآن الكريم خالدة باقية يشهد بصدقها واقع الناس وأحوالهم.

فإذا أردت راحة البال والسعادة الأبويَّة فالزم عتبة العبودية مع الله عَزَّوَجَلَّ، وإن شعرت بضلال أو ضياع أو تعاسة فراجع إيمانيَّاتك وأحوالك مع الله تعالى وشرعه وسُنَّة نبيِّه ﷺ.



(٩٠) حب الدنيا رأس كل خطيئة:

انظر إلىٰ القِلة المؤمنة من بني إسرائيل والتي خرج بها موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليعبر بهم البحر، وينقذهم من استعباد فرعون لهم، أخذوا يجمعون الذهب والحُليَّ من المصريين، وهو نفسه الذهب الذي احتال عليهم به السامري وصنع العِجْل الذهبي الذي عبدوه، والقرآن يبين لنا هذه النفسيَّات في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة:٩٦].

ومن هذا الحرص خوفهم من دخول الأرض المقدسة التي أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ بدخولها، فقالوا لنبيِّهم موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة].

إنه الحرص علىٰ الدنيا الذي صدَّهم عن التوحيد، وأوقعهم في عبادة العجل، وصدهم عن الجهاد في سبيل الله فتاهوا في الأرض أربعين سنة، وصاروا فاسقين مخالفين لأمر الله تعالىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة].

لذلك حذَّر النَّبي ﷺ أمته من مرض الوَهَن الذي سوف يصيبها آخر الزمان عندما تتكالب أمم الأرض الكافرة علينا ، ونحن يومئذٍ كثير، فقال ﷺ:

{ يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا }، فَقَالَ قَائِلٌ:

وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: { **بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ** }، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: { **حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ** }(١). وفي رواية: { **حُبُّكُمُ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمُ الْقِتَالَ** }(٢). و عند الطبراني: { **حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْآخِرَةِ** }(٣).

فحبُّ الدنيا لا يجتمع مع حبِّ الآخرة، وحبُّ الدنيا إذا غلب على حبِّ الآخرة ضعفت الهمَّة والعزيمة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وكان نشيطًا في دنياه، متكاسلًا في عبادة ربه، وهذه من صفات المنافقين؛ قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢**﴾ [النساء]. والدنيا دار بلاء ومحن وليست دار قرار أو مستقر.

❁❁❁

(٩١) الغفلة:

قال الله تعالى: ﴿**فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢**﴾ [يونس].

لقد قلَّ في هذا الزمان مَنْ يعتبر بآيات الله عَزَّوَجَلَّ في الكون، وآيات الله تعالى

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣٩٧) وأبو داود، ك: الملاحم، ب: تداعي الأمم على الإسلام، ح (٤٢٩٧) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (٨٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين»: (١/ ٣٤٤)، ح (٦٠٠) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كثيرة حولنا، يُعزُّ فيها من يشاء، ويُذلُّ من يشاء، ويؤتي الملك فيها من يشاء، وينزعه ممن يشاء، يحيي من يشاء، ويُهلك من يشاء، يُغني من يشاء، ويُفقر من يشاء، يرزق من يشاء العافية، وينزعها ممن يشاء، سبحانه على كل شيء قدير.

آيات في السماء: برق، ورعد، ومطر، ورياح، وخسوف وكسوف، وشهب تتساقط، وغير ذلك.

وآيات في الأرض: براكين، وحروب ودمار وزلازل، وخسف ومسخ، وفيضانات وعواصف، وانهيارات في الأرض. حركة في الكون لا تتوقف، يُديرها ويتحكم فيها بحكمة بالغة مليكٌ مقتدرٌ. قال الله تعالى في سورة القمر بعد قصة نوح وعاد وثمود وصالح وفرعون يقول تارة: ﴿**وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ⁽١٥⁾﴾، وتارة أخرى يقول: ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ⁽١٦⁾﴾، وتارة أخرى يقول: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ⁽٥١⁾﴾ [القمر].

وفي سورة الرحمن تتكرَّر آية ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ ثمانية وعشرين مرة، آيات تركها الله عَزَّوَجَلَّ لنا مسطورة في كتابه الكريم وسُنَّة نبيه الأمين، عبرة لأولي الألباب أصحاب العقول النيِّرة السليمة، لقوم يتفكرون، ولقوم يتذكرون.

وآيات أخرى حولنا، كلها تؤكد حقيقة قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ⁽٤٩⁾ **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ⁽٥٠⁾﴾ [القمر].

• فمن يعتبر بآيات الله ؟

فاسأل نفسك: هل أنا ممن اعتبر بآيات الله تعالى المسموعة أو المقروءة أو

المشاهَدة في الأنفس والآفاق وغيرها؟!، أم أنا من أصحاب الغفلة، الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾[يونس]؟!

– هل اعتبرت بآية غرق فرعون وبقاء بدنِهِ ليكون لمن خلفه آية؟ وهل أنا ممن ذكر الله تعالىٰ (من خلقه)، وما هو المستفاد من هذه الآية، وما أثرها عليَّ في حياتي وأخلاقي وتعاملاتي ومنهج حياتي ؟!.

لقد نجَّىٰ الله تعالىٰ فرعون بجسده ليكون لمن خلفه آية، فلماذا ؟

هل لأن قصة فرعون تتكرر في كل زمان مع كل حاكم طاغوت مستبدٍّ، لا يعبأ بدين أو قرآن أو سُنَّة؟!، أم لأن الدروس والعِظات المستفادة من غرق فرعون تتكرر ويتجدد معها التاريخ الذي يُعيد نفسه بين الحين والحين؟!

استكبار فرعون وجنوده ، وهلاكهم بسبب ذلك ، آية مادية أمام أعين الناس في كل زمان ومكان.. درسٌ بليغ علىٰ صدق هذا التنزيل من الحكيم الحميد، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

❁❁❁

(٩٢) منهج الدعوة إلى الله تعالى:

قال الله تعالىٰ لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه].

وقال سبحانه: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ

طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه].

في هذه الآيات بيان لخطوات الدعوة الناجحة، **وللداعية الموفَّق صاحب الحُجَّة والبُرهان دروس تربوية صالحة لكل زمان ومكان، منها:**

١- إذا واجه الداعيةُ الطغاةَ من الحكام أو أصحاب الأمر والنهي الظاهري في مصالح العباد، فما هي عُدَّة الداعية وزاده عند هذه المواجهة؟! مراحل هامة، وخطوات مدروسة في مدرسة الدعوة في القرآن والسُّنَّة.

فالداعية أمام اختبارات عدة من القول اللين، وإقامة الحُجَّة عليهم تارة بالعقل،

وأخرىٰ بالنقل، أو البُعد عنهم والهجرة بعيدًا عنهم، أو العمل علىٰ تعليم الناس وتربيتهم علىٰ الإيمان؛ مما يُحدث تغييرًا في المجتمع يؤثر علىٰ هؤلاء الطغاة، وكلها مراحل في الدعوة هامَّة، لها وقتها وفقهها الملائم لها.

٢- انشراح الصدر؛ فلا يجب أن يكون صدر الداعية ضيقًا حرجًا، وانشراح الصدر يعكس الحكمة ورجاحة العقل، وقوة الملاحظة، والانتقال بالحوار من مجال لآخر لتجنب الجدال أو الصدام.

٣- تيسير الأمر، والتوكل علىٰ الله تعالىٰ، واللجوء إليه، وتعلّق القلب به؛ فهو سبحانه الضارُّ والنافع، المالك للأمر كله، والتوفيق منه سبحانه، فلا حول ولا قوة للداعية إلا بالله تعالىٰ.

٤- طلاقة اللسان، واستخدام الأقوال المفهومة، والقويَّة الدلالة؛ والتي تقوم علىٰ الحُجَّة والبُرهان، والقول اللين الذي يؤثر ويذكر بالله تعالىٰ.

٥- المستشار المؤتمن؛ فعلىٰ الداعية أن ينظر حوله، ويفتش في أحوال القريبين منه، ويعرف مدىٰ إمكانياتهم وطاقاتهم، ويسخِّرها لمصلحة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ.

٦- التسبيح والذِّكر يقوي الإيمان في قلب العبد، فيعظم فيه قدر الربِّ جَلَّوَعَلَا ويضعف فيه مقام غيره، فيصبح أمام هؤلاء الطُّغاة وهم في عينه وقلبه أهون من الذر، وهذا مصدر قوَّة ومدد الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ.

٧- الشعور بمعيَّة الله تعالى؛ فهي خير عون علىٰ استقرار نفس الدَّاعية، ومصدر ثباته ويقينه ونجاحه في دعوته.

٨- فن الحوار، والأدب في الحديث: من أين يبدأ؟ ومتىٰ يتوقف ليستمع؟

وكيف يُنهي الحوار؟ وحسن الطَّلب المحفوف بالحجَّة والمشفوع بالأسباب المقنعة، والترفع عما عندهم، وعزَّة النفس وعفافها، والخبرة والاستدلال بالحقائق والثوابت من التاريخ والسُّنن، وعرض كل الإمكانيات المتاحة لديهم، وكيفية الخروج من المأزق عند تأزم الحوار بحكمة وأدب جمٍّ.

٩- الترغيب والترهيب، والتشويق والتَّخويف ؛ كلٌ له وقته وبيانه وقت الحاجة إليه والجمع بينهما والتنسيق حتى لا يطغَى أحدهما على الآخر.

١٠- استخدام الوسائل المشروعة في الدعوة؛ فلا سحر ولا كهانة، ولا ادِّعاء لمعرفة الغيب، ولا حديث فيما لا يعلم، ولا خوض في مسائل ليس له فيها خبرة وعلم.

١١- القوة والثبات ورباطة الجأش وعدم تبديل الحقائق؛ وتأمَّل قول موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما أراد السلام في موجز العبارة عند افتتاح مناظرته مع فرعون قال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾ [طه] بلاغة وتشويقًا وبيانًا لفضل أصحاب الهداية من المؤمنين، ويظهر ذلك عند كل مواجهة، سواء كانت بالحوار والمجادلة بالتي هي أحسن، أو اقتربت من المواجهة العسكرية، كما قال موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عندما كاد أن يدركه فرعون وجنوده ردًّا على قول أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾ [الشعراء]، قال لهم: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء].

❁ ❁ ❁

(٩٣) الدلجة:

قال تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠﴾ [الشعراء].

خرج موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه في سترة الليل، وقت الدلجة، حتى إذا اقتربت

الشمس من الشروق تراءى الجمعان.

وفي هذا درسٌ مهمٌّ؛ وهو التبكير بهمة ونشاط؛ ومن ذلك قوله ﷺ: { **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ** }(١).

وقت الدلجة: وقت مبارك، وهو الوقت القريب من الفجر، قبله ركعتين في جوف الليل خيرٌ من الدنيا وما فيها، الدعاء فيه مستجاب تلبية لنداء الرب تبارك وتعالى: هل من داعٍ فأستجيبَ له؟ في حديث النزول في الثلث الأخير من الليل؛ بالله عليك المولى عَزَّوَجَلَّ ينزل إلى السماء الدنيا ويناديك ولا تُحسن استقباله.

أي عبودية تلك؟! وأي محبة تلك؟ !

ثم يشملها وقت الفجر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء].

ثم يعقبها الجلوس إلى شروق الشمس حتى تنال أجر حَجَّة أو عمرة، ثم تكون البركة في البكور في السعي على الأرزاق، حيث يقسِّمها الرزاق جلَّ في علاه في ذلك الوقت.

وفي الحديث: { **لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا** }(٢).

وفي هذه الأحاديث تعاليم وآداب للمسلم يُعرف بها وخصائص يتميز بها؛ من الهمة والنشاط، فالمسلم لا يعرف الكسل ولا الوخم ولا كثرة النوم.

ولقد تعلم العالم من حولنا فائدة البكور وبركة هذا الوقت، وحلت بنا

---

(١) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق..، ح (٢٤٥٠)، وقال: حسن غريب

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٥)، والترمذي، أبواب الزهد، ب: فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ (٢٣٤٤)، وقال: حسن صحيح.

الانتكاسة من السهر والسمر بعد العشاء، والنوم قرابة الضحى أو الظهيرة.

لقد مَنَّ الله تعالى على أتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ونجاهم بفضله وتوفيقه باتباع نبيهم، والسعي معه في همة ونشاط، في وقت البكور.

❁❁❁

(٩٤) (وأزلفنا ثَمَّ الآخرين):

قالها الله تعالى بعد قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء]، وقال بعدها: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء].

دخل موسى وقومه في الطريق اليابس الذي جعله الله تعالى لهم في البحر: (وأزلفنا ثم) في ذلك المكان (الآخرين) أي: فرعون وقومه، وقرَّبناهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق، الذي سلك منه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه، فلما استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد، (أغرق الله تعالى الآخرين، ولم يتخلف منهم من الغرق أحد)، وشاهدوا ذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [البقرة].

إنه مشهد قد استقرَّ في العقل والقلب لا يُنسَى أبدًا.

أليس في ذلك آية عظيمة على صدق ما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، وما كان أكثرهم مؤمنين مع هذه الآيات، المقتضية للإيمان، لفساد قلوبهم وقسوتهم، إن ربك لهو العزيز بعزته، أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجَّى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه أجمعين.

والجزاء من جنس العمل، فكما بَعُدَ أهل الإيمان عن المعاصي وزلفوا عنها جزاهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾ [ق]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ:٣٧].

والسِّحر تعطيل للتوحيد، وانتشار للخُرافات والخزعبلات وأكل لأموال الناس بالباطل، وتعطيل للقوىٰ البشرية النافعة؛ لذلك كان حدّ الساحر: ضربة بالسيف لأن الإسلام إنما يريد من المجتمع أن يستغل كل طاقاته وخبراته لنفع الناس، فأي تعطيل لها اعتراض علىٰ قدرة الله تعالىٰ، وما كانت عصا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِلَّا معجزة من معجزات الرُّسُل ليُبطل الله عَزَّوَجَلَّ عادة السحر التي انتشرت في زمان الفراعنة، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه].

كما أنه لا يفلح المجرمون، ولا يفلح الظالمون ولقد استعمل القرآن الكريم ألفاظ (سِحْر، ساحِر، لِتسحرنا، تُسحَرون، أَفَسِحرٌ، أَسِحْرٌ، بسِحْرٍ، بسِحْرِك، بسِحْرِه، بسِحْرِهِما، سِحْران، السَّاحِرون، مَسْحُورًا، مَسْحُورون).

فلخطورة هذا السِّحْرِ جاء القرآن الكريم بمشتقَّات الكلمة، ومفردها، ومثناها وجمعها، وبالفعل الأمر، والمضارع.

۞۞۞

(٩٥) (الآن وقد عصيتَ قَبْلُ وكنتَ من المفسدين):

آمن فرعون لَمَّا تيقن الهلاك والغرق، وأنه لا قوة له ولا ناصر، ولا عاصم له من أمر الله ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر:٢٩].

والمعاصي كبائر وصغائر، ومنها معاصٍ مع الإفساد؛ وهي أقبح أنواعها.

والفساد في الأرض سواء كان بالمعاصي أو بالظلم، أو بعدم الإصلاح، أو بموالاة الكافرين هو من أسباب غضب الله تعالى، وحجب توفيقه ومغفرته وعونه عن صاحبه.

ومن المعاصي: الكفر؛ وهو درجات: (كافر، وكافر ظالم، وكافر صادٌّ عن سبيل الله تعالى، وكافر مُفْتَرٍ).

والله عَزَّوَجَلَّ يعلِّمنا الدرس المهمَّ في ذلك، ليبين أثر المعاصي والإفساد على سوء الخاتمة، وإتيان بأس الله بغتة.

❁❁❁

(٩٦) عاشوراء:

• شهر الله المحرَّم، الشهر الذي نسبه الله تعالى إليه، وجعله من الأشهُر الحُرُم (ذو القعدة، وذو الحجَّة، والمحرَّم، ورجب)، وأمرنا ﷺ بالصيام فيه بقوله: **{أَفْضَلُ الصِّيَامِ، بَعْدَ رَمَضَانَ، شَهْرُ اللهِ الْمُحَرَّمُ}**(١).

لذلك كان أمره ﷺ بصيام يوم عاشوراء، واليوم التاسع قبله بمثابة الرابطة التي تربطنا بالأنبياء، وللاستفادة من الدروس والعبر من قصصهم... وبما أن في الصيام تهذيبًا للنفس، وتعويدًا لها مراقبة الله تعالى؛ وبالتالي الشعور بمعيَّته، كان ذلك التواصل برسالة الأنبياء جميعًا، وبما في الصوم من التعوَّد على العمل الخالص لله، وفي هذا تدريب على الإخلاص في الدعوة إلى الله تعالى، وهي منهج الأنبياء جميعًا.

---

(١) سبق تخريجه.

• **ومما حدث في شهر المحرَّم:** نجاة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن معه من المؤمنين، وخروجه ﷺ إلىٰ خيبر سنة (٧ هـ)، وزواجه بصفية بنت حُييٍّ بن أخطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ووفاة ماريَّة أم إبراهيم سنة (١٦هـ)، ومقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم الجمعة ١٠ محرم سنة (٦١هـ).

• **ومن بِدَع الناس في شهر الله المحرَّم:** اهتمامهم واعتبارهم هذا اليوم مَوْسِمًا، ليس للعبادة والصيام وقيام الليل، بل موسمًا للطعام والحلوىٰ، والاكتحال، والاختضاب فيه، ويستدلُّون بالحديث الموضوع الذي جاء فيه: «**من وسع على أهله يوم عاشوراء...**»؛ فهذا حديث موضوع لا يصح، وفي إسناده مجاهيل لا يُعرَفون.

أمَّا اتخاذه مأتمًا، كما تفعله الرافضة لأجل قتل الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فهو عَمَلُ مَن ضلَّ سعيه في الحياة الدنيا، وهو يحسب أنه يُحسِنُ صنعًا، ولم يأمر الله ولا رسوله باتخاذ أيام مصائب الأنبياء وموتهم مأتمًا، فكيف بمن دونهم، والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتِلَ شهيدًا مظلومًا، ونبرأ إلىٰ الله تعالىٰ ممن قتله، ومن الذين يتاجرون بدم الحسين، وهو منهم ومن منهاجهم براء.

وهذه بدعة الشِّيعة – عليهم من الله ما يستحقُّون –، واحتفالهم بمقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشكل قبيح مخيف لا سند له من كتاب أو سُنَّة.

• **والناس في يوم عاشوراء ثلاثة أصناف:**

الصنف الأول: الروافض: الذين جعلوا يوم عاشوراء مأتمًا عالميًّا، وذلك لأنهم شعروا بالذنب لخذلان الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في العراق، وأفعالهم في هذا اليوم ليست من الإسلام، وفي الحديث: { **لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ،**

وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ}[١].

وقال أَبُو مُوسَى الأشعرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا بَرِئَ مِنْهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ { بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ، وَالْحَالِقَةِ، وَالشَّاقَّةِ }[٢].

والصالقة: هي التي ترفع صوتها بالنياحة.

والحالقة: هي التي تحلق شعرها عند المصيبة.

والشاقَّة: هي التي تشُقُّ قميصها من ناحية الصدر.

والحزن في الإسلام إنما يكون بالصبر والاسترجاع واحتساب الأجر، وأعظم المصائب عندنا هي: موت الحبيب ﷺ. فتهون المصائب بعدها.

الصنف الثاني: النواصب؛ وهم الذين يكرهون عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وآل بيته ويناصبونهم العداء، وفي الحديث: { فِي ثَقِيفٍ كَذَّابٌ وَمُبِيرٌ }[٣].

يُقَالُ: الكَذَّابُ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ، وَالْمُبِيرُ: الحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ.

الصنف الثالث: أهل السُّنَّة؛ الذين يعتقدون أن حبَّ آل البيت دين، وفي الحديث: { أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ الله فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ الله، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ } فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ الله وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: { وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي }، فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ

---

(١) أخرجه البخاري، ك: الجنائز، ب: ليس منا من شق الجيوب، ح (١٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري، ك: الجنائز، ب: مَا يُنْهَى مِنَ الحَلْقِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، ح (١٢٩٦)، ومسلم، ك: الإيمان، ب: تَحْرِيم ضَرْبِ الْخُدُودِ وَشَقِّ الْجُيُوبِ وَالدُّعَاءِ بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، ح (١٠٤).

(٣) أخرجه الترمذي، أبواب الفتن، ب: ما جاء في ثقيف كذاب ومبير، ح (٢٢٢٠).

بَيْتِهِ؟ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاس (١).

فالاعتدال كل الاعتدال في منهج أهل السُّنة، وهم الذين يعبِّرون عن حبِّهم لآل البيت بالاتِّباع وليس بالابتداع أو الغُلُوِّ، بالتأسي بهم في الأعمال ونهج منهجهم في الدعوة والجهاد والعلم.

❁❁❁

(٩٧) فقه الحوار:

معرفة السُنن الربَّانيَّة كما أمرنا الله تعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾**﴾ [آل عمران].

والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ والحركة بها بين الناس، وقول الحقِّ، كل ذلك يلزم فيه أدب الحوار، كما جاء في القرآن والسُّنَّة، فلولا دعوة موسى وهارون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفرعون بالقول اللين؛ كما أمر الله تعالى: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾**﴾ [طه]. ولولا كلمة الحق الذي صدع بها مؤمن آل فرعون كما وردت في سورة [غافر]، والتي تسمى باسمه أحيانًا (سورة المؤمن)، ولما كان أثر ذلك في قول فرعون ﴿**آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾**﴾ [يونس].

لذلك فإن على الدَّاعية والفقيه والعالم والواعظ أن يبذل قصارى جهده وطاقته وإمكانياته في الحرص على هداية الناس لربِّ العالمين دون النظر إلى

(١) أخرجه مسلم، ك: الفضائل، ب: مِنْ فَضَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ح (٢٤٠٨).

النتائج، فقد يقول قولًا أو يعمل عملًا يتذكره الناس بعد حين من الدهر، ويكون سببًا في صلاحهم وهدايتهم.

وأن يتعلَّم فقه الحوار والجدال مع أهل الباطل، وعدم الدخول معهم في حوارات تغير صلب القضية، وهذا ما نلاحظه بصورة واضحة في صدر سورة الشعراء بين موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون.

❁❁❁

(٩٨) يُعزُّ من يشاء:

سُنَّة العزِّ والإذلال، وفقًا لقول الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران]. ومن العزة أن يكون ميراث الأرض للصالحين؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥﴾ [القصص]، ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء].

حتىٰ الجنة قال الله في أهلها: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم].

وهذا درس هامٌّ في صبر أهل الحق والصلاح، وعدم استعجال الأمور، والثقة بالله عَزَّوَجَلَّ، وبنصره وبوعده لهم بالتمكين والاستخلاف إن كانوا أهلًا لذلك؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة].

فنالوا الإمامة والعزَّة بثلاثة شروط:

الأول: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: بالوحي، فلا تصح إمامة، ولا تُقبل من جاهل أو فاسق أو مبتدع، لابدَّ منها من اتِّباع الوحي والالتزام بها، والدعوة بما جاء به.

الثاني: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ صبروا في طلب العلم، وسهر الليالي، والسياحة في القرى والمدن والقفاري، طلبًا للعلم ورغبة في تحصيله، وصبروا على معاناة الدهر، وكبد الأحداث، ونوائب الزمان، وقسوة أهل الباطل عليهم، صبروا في الثبات على هذا الدين والدعوة إليه، والجهاد من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا.

الثالث: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ يقين في وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين، وموعدة لهم بالجنة إن ماتوا قبل ذلك، ثقة في الله عَزَّوَجَلَّ، ويقين وصبر، وهذا مِنْ أهم زاد الداعية في هذا الزمان.

❁❁❁

(٩٩) أقسام التوحيد:

في قصة نجاة موسى وغرق فرعون وجُنده تحقيق لأقسام التوحيد الثلاثة: (توحيد الربوبيَّة، وتوحيد الإلهيَّة، وتوحيد الأسماء والصفات).

قال تعالى على لسان فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]، وقال في موضع آخر: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[القصص:٣٨]،﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء].

أولا: توحيد الربوبية: قال موسى: ﴿كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء]، وقال السَّحرة: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف].

والرَّب: بمعنى المالك؛ يُقال: ربّ الغنم وربّ الضَّيْعة، أي: صاحبها ومالكها.

والرَّب بمعنى الوليِّ؛ الذي يتولَّى شئون مَنْ يرعاه، ويقوم على مصالحه، ويوفِّر له احتياجاته وينفق عليه، يُقال رب الأسرة، ورب العائلة - أي كبيرها والقائم على أمرها -، والذي يُرجَع إليه عند الخلاف والشقاق والنزاع، وله الكلمة المسموعة.

والرَّبُّ بمعنى المرتجَى قربُه ووِدُّه وحبُّه ورضاه؛ وذلك لقهره وملكه ونفوذه وسيادته؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٤].

وكل هذه المعاني تنطبق على الملوك والرؤساء والأمراء والآباء والرُّعاة والولاة والسادة، ولكن كلٌّ على قدر ما يناسبه.

وإذا طبَّقنا هذه المعاني على الله عَزَّوَجَلَّ فإنها تنطبق على الله تعالى بما يليق بجلاله وقدرته وأسمائه وصفاته. فهو سبحانه المالك: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦]، وهو سبحانه الملك: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس].

وهو سبحانه المتكفِّل بخلقه رزقًا وحفظًا ورعاية؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر]، وهو سبحانه الحَكَمُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥].

ولقد فصَّل الله عَزَّوَجَلَّ معاني الربوبيَّة في صدر سورة [فاطر]؛ حيث ذكر الله عَزَّوَجَلَّ: أنَّه سبحانه فاطر السموات والأرض، جاعل الملائكة رُسُلًا، يزيد في الخلق ما يشاء، وهو على كل شيء قدير، مالك الرحمة؛ إذا فتحها فلا مُمسِك لها، وإذا أمسكها فلا مُرسِل لها من بعده، وأنه الرزاق لخلقه، وأنه الذي أرسل الرسل،

وأنزل الكتب، وإليه تُرجع الأمور، وأن وعده حق، وأنه صاحب الهداية والإضلال، مُرسل الرياح، ومُحيي الأرض بعد موتها، وأنه له العزَّة جميعًا، وأنه بدأ الخلق من تراب، ثم من نطفة، ثم جعلهم أزواجًا، وأن علمه قد أحاط بكل شيء، وأنه سخَّر السموات والأرض والشمس والقمر كلٌّ يجري لأجل مسمًّى بأمره.

وبعد هذا العرض لصفات لله عَزَّوَجَلَّ وأفعاله، قال بعدها: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [فاطر:١٣]، وهو سبحانه ربُّ العالمين، وله الحمد وحده: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة].

لذلك أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالاستسلام له وحدَه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنعام]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٦﴾ [غافر].

وأن تكون العبادة له وحده؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١].

وكان الأمر باتِّباع وحي هذا الربِّ العظيم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:١٠٦].

وهذا الربُّ جَلَّوَعَلَا عدلٌ، لا يُهلِك القرىٰ إلا بظلم أهلها؛ قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ۝١٣١﴾[الأنعام].

وهذا الرَّب سبحانه هو: ﴿ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الأنعام:١٣٣].

وهو سبحانه القاضي بين الخلق يوم القيامة بعدله وفضله؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ

﴿رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣﴾ [يونس]، وهو سبحانه فعَّال لما يريد؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [هود].

وهو سبحانه صاحب العفو والمغفرة مع ظلم الناس؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡ﴾ [الرعد:٦].

ولا حيلة للدعوة والدعاة إلى الوصول لسبيل الله تعالى إلَّا بما أخبر سبحانه في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهو سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠].

والذِّكر والتسبيح يكون لذلك الربِّ العظيم، قال سبحانه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾ [الطور]، وقال أيضًا: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾ [المزمل]، وقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾ [الإنسان].

- والقراءة تكون باسم الله، قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق]، وقال سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣﴾ [العلق].

والمآل والمصير إلى الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ [العلق].

والتقوى تكون لذلك الربِّ؛ قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج]. والتسابق للتوبة والمغفرة؛ قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٢١].

وأحبُّ الدُّعاء إلى قلب المسلم ما كان ابتداؤه بكلمة ﴿رَبَّنَا﴾؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء:٧٥].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف].

وقال عَزَّ مِنْ قائل: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الممتحنة:٥].

وعلى العبد أن يحفظ مقام ربه لديه، وليكن مقامه أغلى وأعلى وأعزَّ مقام.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

لذلك حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ من اتخاذ ربٍّ سواه؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٦٤].

لذلك كان ادِّعاء فرعون الربوبيَّة زائفًا وخادعًا؛ لأنه بغى وتكبَّر وظلم، ولم يقم بالعدل والسويَّة، ولم يكن ناصرًا للحقِّ متَّبعًا له، ولم يكن راعيًا لشعبه، حاكمًا بينهم بالعدل، منفقًا عليهم بالسويَّة، وليس فيه من خصال الربوبية التي ذكرناها شيءٌ.

وشعبه الذي عانَىٰ منه القتل والتَّفريق والاستحياء، بمجرد ما سمعوا ادعاءه بالربوبيَّة سجدوا له، ولا عُذر لهم سواء كان سجودهم هذا خوفًا منه واتقاء سخطه عليهم، أو تعظيمًا له، ورغبةً في رضاه؛ لذلك وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بأنهم كانوا قوم سوء فاسقين.

كان فرعون يتوقع معارضة، أو نقدًا، أو اعتراضًا، أو حتىٰ صمتًا بدون تعليق، فما أغبَىٰ الأتباع عندما تُطمس البصائر!. فهل أغنىٰ عنهم هذا السجود؟ سبحان الله!!؛ لقد أذاقهم ألوانًا وأصنافًا شتَّىٰ من العذاب، وادَّعىٰ الألوهيَّة فأباح لنفسه القتل والتعذيب.

ثانيًا: توحيد الألوهية: قال فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] فهل عقل ما ادَّعاه؟!

إن المعبود يُسمَّىٰ إلهًا، والمحبوب حبًّا مقدّسًا يُسمَّىٰ إلهًا؛ والملتجأ إليه عند الشدائد والرغائب يُسمَّىٰ إلهًا، والمشتاق إليه شوق الفرع لمصدره يُسمَّىٰ إلهًا، وكذلك الحي حياة دائمةُ يُسمَّىٰ إلهًا.

والذي لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم هو الإله الحقُّ، كل شيء هالك إِلَّا وجهه، له الحكم، وإليه المرجع والمصير... والذي لا تتغير صفاته، ولا تنفد خزائنه، هو الإله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر:٢١].

والذي يملك الضّر والنفع، والإحياء والإماتة هو الإله؛ قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٨٨].

والذي يُحبُّ التذَلُّل له، والخشية له، والخوف منه، مع الرغبة والرجاء فيه هو الله عَزَّوَجَلَّ، فكل شيء تخافه تهرب منه، إلا الله إذا خِفته هربت إليه؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة:١١٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤﴾ [الحج].

وقال سبحانه: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:٦٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ [مريم].

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات:

قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى].

وتظهر آثار أسماء الله الحسنى وصفاته العليا في مواقف موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وموقف السحرة الذين آمنوا بالله عَزَّوَجَلَّ من هذه الأسماء، كما ترى ثمرة الإيمان بهذه الأسماء الحسنى، وتلك الصفات العلى على حركة الصالحين، ولكل اسم مدلوله وله أثره الذي يتطبَّع به المسلم ويتميَّز ويتخلق به. **ومن ذلك:**

اسم الملك: الملك المتصرف في ملكه كيفما شاء.

والباقي: وكل من عليها فانٍ.

والمهيمن: الذي يهيمن علىٰ كل شيء.

والعزيز: الذي لا غالب له.

والقوي الحي القيوم، الجبار... وهكذا.

• لذلك جاءت **كلمة التوحيد**: «**لا إله إلَّا الله، محمدٌ رسول الله**» **شاملة ومفصَّلة لتشمل كل أنواع التوحيد من**:

١- توحيد ربوبيَّة مستلزم لتوحيد الألوهيَّة: «لا إله إلَّا الله».

٢- توحيد الأسماء والصفات، وهو صورة من صور توحيد الربوبية.

٣ - توحيد القلب لِمَا اشتملت عليه من معانٍ، واحتوته من شروط انتفاع لقائلها من: «**العلم، واليقين، والمحبَّة، والانقياد، والقبول، والصدق، والولاء، والإخلاص، والشوق، والحنين، واللجوء، والخوف، والرجاء**».

٤- توحيد المنهج والعمل؛ (لا إله إلَّا الله): (إياك أريد)، (**محمد رسول الله**): (بما تريد).

٥- توحيد التَّرْكِ: (لا إله)؛ بمعرفة جميع الآلهة التي تعبد من دون الله سواء كانت أصنامًا، أو أربابًا، أو هوًىٰ، أو مادةً، أو شهواتٍ، والكفر بها والتبرؤ منها، حتىٰ يصح له إيمانه بالله وحده بلا شريك ولا منازع ولا مثيل ولا نظير ولا شبيه.

❁ ❁ ❁

(١٠٠) العبودية:

قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾ [الشعراء].

فما هي مظاهر تلك العبودية؟

قد كانوا لا قيمة لهم، كان فرعون يبيع فيهم ويشتري كما يشاء، والسمع والطاعة له، والولاء له، يؤدون ما يكلِّفهم به، مع الخوف منه، ومن مخالفة أمره، وهذه هي لوازم العبوديَّة الثلاثة: «أن يُباع ويُشترىٰ، وأن تكون له مهمة، وأن يسمع ويطيع مع الخوف». وكل هذه اللوازم امتهان لكرامة الإنسان.

أمَّا العبوديَّة لله تعالىٰ فهي تمتاز بالعزَّة والكرامة، والرضا والفخر بها؛ لأنها الوحيدة في محلها الحقيقي والطبيعي.

والعبوديَّة لله تعالى تتوفر فيها نفس الشروط من:

١- بيع وشراء يرقَىٰ بالنفس ويطهرها؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١١﴾ [التوبة]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧﴾ [البقرة].

٢- وأن تكون له مهمَّة من الاستخلاف وتحمّل الأمانة والعبوديَّة.

٣- وأن يسمع ويطيع؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور].

٤- الفرح بها، والسعي للحصول عليها، لأنها شرف وعزَّة، على النقيض من عبودية البشر لغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ فهي ذل ومهانة وانتقاص للكرامة.

ولما كان فرعون ظالمًا مستبدًا، يعتريه المرض والعجز والضعف والنوم كانت هذه المعاني من العبودية لا يستحقها، وليس أهلًا لها، وأصبحت مهانة للإنسانية والفطرة والغاية التي خلقهم الله من أجلها.

والله سبحانه هو الخالق والحكم العدل، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، وهو صاحب الصفات والأسماء والأفعال الحسنى؛ لذا كانت العبوديَّة له سبحانه في محلها الطبيعي، وكانت بالنسبة لعبيده عزَّةً وشرفًا، وكان الانتساب لها في مكانه ومحله الطبيعي، الموافق للفطرة والطبيعة الإنسانية، وصدق الله حيث يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

وتأمّل قول الله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء]؛ إنها عبوديَّة صافية خالصة لله وحده، ليس لخلق فيها نصيب، فهم عبادٌ له وحده.. أصحاب قوة في الحقِّ؛ لأنها مستمدة من الحق جَلَّوَعَلَا لا يهابون الباطل ولو جمعوا لهم. فعزَّة العبوديَّة لله تعالى وشرفها وهيبتها يجعلنا لا نرضى عنها بديلًا، ولن نفرِّط فيها قطميرًا.

❁❁❁

(١٠١) حتى يعلم الله:

قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران].

لابد من البلاء، والبلاء في حياة الأنبياء والدعاة؛ انظر لقصة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومدىٰ المعاناة والأذىٰ الذي لاقاه منذ الطفولة وإلقائه في اليمِّ، ومعاناته في قصر فرعون، ومعاناته في بداية الدعوىٰ حتىٰ النهاية، ويكفي خروجه والقلَّة المؤمنة في غسق الليل هاربين ومهاجرين من فرعون حتىٰ أغرقه الله تعالىٰ، ثم معاناته الكبرىٰ مع بني إسرائيل، وهذا ليس خاصًّا بموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بل كل أولي العزم من الرُّسل وسائر المرسلين والنبيين؛ قال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ٢١٤﴾ [البقرة].

إنها سُنَّة الله تعالىٰ حتىٰ يعلم المجاهدين والصابرين من عباده، الذين لديهم القدرة علىٰ الثبات علىٰ هذا الدين.

ولهذا البلاء فوائد منها: الرغبة في الآخرة، ونزع حب الدنيا من القلب، وأن العبرة بالخواتيم، وأن العزة ليست في العافية فقط، فقد تكون العافية بلاءًا أشد من ذهابها، وأن الإيمان أغلىٰ وأثمن ما في الدنيا، وأن نشهد مع هذا البلاء عزَّ الربوبية وهيمنتها، وذلَّ العبودية وانكسارها، ونشهد به أيضًا محبة الله تعالىٰ لعبده، ومعيته له سبحانه، وصلاته علىٰ أرباب البلاء؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة].

(١٠٢) (وما أمر فرعون برشيد):

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ۝٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ۝٩٨﴾ [هود].

تأمَّل في حُكم الله تعالىٰ علىٰ البشر، فالله سبحانه هو وحده الذي يعطينا التصور الصحيح عن الناس حُكَّامًا ومحكومين، ويجب قبل أن نمدح أو نذم أن نعرض من نريد مدحه أو ذمه علىٰ كتاب الله تعالىٰ وسُنَّة نبيّه ﷺ أولًا، ومدىٰ حرص الناس عليهما، ونرىٰ أين مكانتهم فيه؟

كان قيادة فرعون ومن شابهه قيادة غير رشيدة، فقد أَمَّ قومه إلىٰ النار. فلنحرص أنا وأنت علىٰ أن نكون مع الفريق الفائز يوم ينادي المنادي، وأنت من هنا تختار الفريق والقيادة التي تحب أن تنتسب إليها يوم ينادي المنادي: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى]، ومع ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات].

فانظر كيف عبَّر الله تعالىٰ عن الراشدين: بأنهم أحبوا الإيمان واستقر في قلوبهم، وكرهوا الكفر والفسوق والعصيان.

ومن الرشد: أن تسترشد في حياتك بما جاء في القرآن وورد في السُّنَّة، فتستقيم أحوالك بالعقيدة الصحيحة، واتباع السنة الصحيحة، وسؤال الله تعالىٰ وحده دون سؤال غيره؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ

ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة].

وهذا مما يساعدك على الثبات على الدين؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران].

فلا تعجب ممن ضعف كيف ضعف؟! ولكن تعجَّب ممن ثبت كيف ثبت؟!.

ومن عوامل ودلالات الثبات: نفع الناس والسعي في مصالحهم وقضاء وحوائجهم؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد:١٧].

ومن دلالات الثبات وعلامات الهداية: الاستفادة بعامل الزمن، وانقضاء العمر، وبقاء الذكرى، فكلما ذُكر موسى نقول: عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكلما ذُكر فرعون نقول: عليه لعائن الله.. فما الذي استفاده موسى من الإيمان بعد رضوان الله تعالى ورحمته إلا الذكر الحسن، وما الذي خسره فرعون بعد كفره وغرقه إلا الذكر السيء.

❁ ❁ ❁

(١٠٣) ضعف وعجز:

ومن هذه الدروس وتلك السُّنن: كيفية نشأة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في بيت فرعون، وتحت عنايته ورعايته تلبية لرغبة زوجه أن تتخذه ولدًا.. وهذا فرعون الذي يدَّعي الربوبية والإلهية يعجز عن معرفة مصيره، والغيب الذي سوف يحيط به، مما يدل على عجزه وضعفه، ويزيد من حسرته وندمه عندما يقع هلاكه وغرقه على يد موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الذي ربَّاه ورعاه. لكنها المفارقة بين الحق والباطل، والولاء لله ولأحبائه، والبراءة من أعدائه.

وهذا يذكِّرني بما كان في أثناء عهد الطاغية السابق حين كنت أذهب بأولادي إلىٰ مراكز تحفيظ القرآن الكريم، والتي انتشرت في شتىٰ بقاع المعمورة في القرىٰ والنجوع والمدن، وكنت أدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعمِي بصائرهم وبصيرتهم عنها، وأن يحفظ هذه المراكز من بطش الظالمين؛ لأن الأمَّة عندما تعود إلىٰ كتاب ربها وسُنَّة نبيها يكون ذلك إيذانًا ببدء هلاك الظالمين وتمكين الصالحين.

۞۞۞

(١٠٤) (العاقبة للمتقين):

والعبرة بالخواتيم مِنْ سُنَّة الله تعالىٰ التي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، وقد تمثل حُسن الخاتمة في حق موسىٰ ومن معه، وسوء الخاتمة في حق فرعون وقومه، واضحًا جليًا في ذلك اليوم، وكيف أن الله تعالىٰ ينصر رسله والذين آمنوا من الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

۞۞۞

(١٠٥) (لقد كان في قصصهم عبرة):

ما كان حديثًا يُفترىٰ، نحن نقص عليك أحسن القصص، إن هذا لهو القصص الحق. فلماذا - يا عباد الله - إذا كان هذا هو وصف قصص القرآن والسُّنَّة، فلماذا هجرناه وسعينا نقدم نماذج للمسلمين من الغرب تارة، ومن الشرق أخرىٰ من أهل الكفر؟![(١)]. أليس أمامنا نماذج من سير الصحابة والتابعين، والخلفاء والعلماء والفقهاء، والمجاهدين عبر السنين والتاريخ، فلماذا نترك ما ينفع الناس،

---

(١) وهذا منتشر في دورات البرمجة اللغوية ، ودورات التنمية البشرية المنتشرة في البلاد. راجع في ذلك كتابنا «طوِّر نفسك، وغيِّرْ نمطَ حياتِك» (١/ ٤).

ونحرص على الزَّبد الذي يذهب جُفاءً!.

۞۞۞

(١٠٦) لماذا مصر؟

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس:٨٧].

وإذا أردت أن تعرف الجواب فارجع إلى كتابنا: «**مصر بين الأصالة والضيافة**»، وكتاب: «**مصر في ظل دولة الإسلام**» للدكتور مصطفى السواحلي.

۞۞۞

(١٠٧) ما العمل بعد الهجرة؟

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس].

إقامة للدين: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج].

حركة دؤوب في إقامة الدين، والدعوة إليه، والمحافظة على الصلاح، ومحاربة المنكر.

۞۞۞

(١٠٨) الزينة والأموال:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس].

فالزينة والأموال وبال على أصحابها إذا أدت بهم إلى الضلال أو الإضلال، وكم تبنى أصحابها أفكارًا ومناهج ودينًا رسموه حسب مصالحهم وأموالهم، أما إذا كانت الزينة والمال متوافقة مع دين الله تعالى، مسخرة لتعاليمه، محكومة بآدابه فلا حرج منها.

❁❁❁

(١٠٩) أثر الدعاء على الظالمين:

قال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس] بعد دعوة موسى ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]. وهذا يتوافق مع دعاء كثير من الأنبياء على أقوامهم. فليحذر أهل الظلم من دعاء أهل الصلاح، أصحاب سهام الليل التي لا تخيب بإذن الله أبدًا.

وتأمل قول قول مؤمن آل فرعون: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر].

❁❁❁

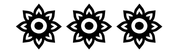
(١١٠) لا يخسر مع الله أحدٌ:

إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: لما اعتزل قومه وما يعبدون من دون الله وهبه الله إسحاق ويعقوب، ولما عادى الخلقَ في الله اتخذه الله خليلًا، ولما تبرَّأ من أبيه جعله الله أبًا للمسلمين؛ قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج:٧٨].. ولما اعتزل قومه وهاجر وهبه الله دينًا ودنيا، ورزقه إسحاق ويعقوب، ووهبه أبناء عِوضًا عن أبيه،

ولما نبذ أهل الشرك وهبه الله وعوَّضه بأهل التوحيد في ذريته والأثر والذكر الحسن، ونعمة الآخرة (الرحمة).

وموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما هاجر أورثه الله وقومه مشارق الأرض ومغاربها.

ومحمد ﷺ لما هاجر وترك أحب البلاد إليه عوَّضه الله المدينة، وعوَّضه عن قومه بالأنصار، وأعزَّه الله، وأذلَّ أعداءه.



وفي الختام:

هذا ما منَّ به الرحمن من دروس وعِبَر، من حادثة يوم عاشوراء، الذي تمت فيه نجاة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن معه، وغرق عدو الله وجندُه، كانت بها يزيد عن مائة عبرة وفائدة، تأخذك من زهرة إلىٰ زهرة، نتعلم الدروس والعبر التي يعيننا الله تعالىٰ بها علىٰ الثبات، وهذا من أعظم فوائد القصص؛ قال الله تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام]، وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان]

وانطلاقًا من قول الله لنبيه موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم].

ويليه - بمشيئة الله تعالىٰ - الجزء الثاني من هذه السلسلة (**نحن أولى بموسى منكم**)، وهو كتاب **(مؤمن آل فرعون .. دروس وعبر).**

اللَّهم اجعل هذا العمل خالصًا لوجهك الكريم وفي ميزان حسناتنا يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وما توفيقي إِلَّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

كتبه

أسامة بن محمد بدوي البراجة

تم الانتهاء من مراجعته

في غُرَّة شهر الله الحرام رجب مُضَر لعام ١٤٣٧

من هجرة سيد الأوَّلين والآخرين محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الفهرس

الموضوع	الصفحة